شـهـرنـان

رِوَايَـة

إنچـي مـطـاوع

إهـــــــــــــــــداء

لكل . .

فقير كسره العوز، ولكل أنثى أحبت وترنمت عشقًا وهيامًـا في حب رجل تاه عنها .

لكل عاشق ولهان ضاع دربه إلى حبيبته أيًّا ما كان السبب .

ولكل من عاش بحشايا قصة حب دون أمل أو نهاية .

ثم . .

للدنيا ومتاعبها . .

للحياة وأحداثها . .

والأهم . .

لآخرتي المنتظرة . .

ولك آسري .

مقدمة

هل منَّا من يعرف نفسه حقًّا؟! يفهم تراكيب أحلامه، أيامه، لياليه وأمنياته، يستوعب حقائق خلجاته، يتعامل مع أوهامه وظنون تتعب حياته، يدرك لحقائق أحداث الدنيا فرح وأحزان نفسيته؟ لا أحد يعرف أو يدرك حقيقته، أو حتى يستوعب، إلا شرذمة قليلة لثوانٍ تساوي زمن صمته.

اليوم، سأحكي قصة مختلفة عن خائن عاش ويعيش غيره كثير معنا، عن ظل متخفٍّ في الأجواء، شبح لإنسان كان وبات الآن ذكرى بجدارة تُهان.

تعالوا نتجول في ذاك العالم المليء شراكًا خانقة لبراءة نفس، غارزة لتوحش روح، قتل لكيان حب ووفاء، عالم لا يشمل إلا كل من باع وخان، عالم تحبس في كل خطوة معه نفَسك وكأنه آخر

نفَس تزفره، ويجبرك الانفعال على شهيق تشعر معه بتيبسك لتدخل بلاد الحَجَرِ في ثوانٍ.

نعم.. سأحكي عن قصة خائن باع بلاده، متوهمًا، بغباء وحُمق، تميزه ببراءة تخرجه خارج إطار الشبهات، ومعها مزيج من قصصٍ لعشاق وأحبة خانوا، رجل أو أنثى لن تفرق، فكلاهما أذنب وباع حبيبه برخيص الأثمان، وسأمزج معها حلقات على شكل برنامج إذاعي سمَّيته «شهرنان».. هو مثيل لحكايات «شهرزاد».

كُل حلقة تحكي قصة حب لا تهم نهايتها، أو هل خطواتها سارت على الطريق السليم، أم انتهت بهجر وفراق، هي قصص نعيش واقعها يوميًّا في كل مكان، الخائن أنثى أم رجل، لا يفرق، فكلاهما في عالم الحب سواء، تتساءلون: لماذا حكايات الحب هنا؟!

لماذا تقصي روايات عشق أنت و«شهرنان»، تسبق قصة رجل خان نفسه وبلاده؟! وإجابتي بأن هناك من يخون وطنًا كبيرًا وُلد

وتربى على أرضه، غـرس هـواءه وعـبيره برئتيـه، بكامـل إرادتـه الحرة، متعللًا بكثير من الأسباب.

وهناك من يخون وطنًا أصغر، وطنًا يحويـه هـو منفـردًا، وطنًـا عشقه وكان يتمنى رضاه، لكن.. وآه مـن لكـن.. فـضَّل خائنـه تركه يتجرع دماء مسمومة من هجر وخذلان.

يَطعمُ آهات ممزوجة بنزف دموع نكران وحرمان حبيب.

الفصل الأول

قطع الشطرنج

«شهرنان» يا «شهرنان» . . هلي علينا وغردي، اشدي أعذب ألحان الحكايات، أسعدينا بما يُنسينا ما نراه من دنيا متعبة، بشر ذوي طبائع مؤرقة ظالمة، قدِّمي نصحك ملفوفًا داخل سطور وأحرف روايات وأساطير سارقة، احكيها لنا بإثارة مغلفة متشبعة.

يا غالية . . لا تنوحي في القصص وأعلني الاستقالة من أحزان وآهات تسكننا دون نهاية، غنِّي واعزفي من دون غاية إلا سعادة قلوبنا المرهقة، أفرحي قلوبًا، أشجينا وأمتعي فينا النظر قبل السمع، أطلقي شعلة ونيران الخيال لتسبح معك في السموات العلا.

«شهرنان» . . أخبرينا عن حب لرب العالمين وتقرب إليه لنهاية الأزل، احكي بسعادة عن مدينة فاضلة، وعن حياة مريحة رغيدة

تزين الوطن، احكي عن ملك ورعيته يسأل عنهم وبالحق يجيب، عن آمال وأحلام محققة ببساطة دون كلل أو ملل أو حتى تعب.

غرِّدي عن صعود وارتقاء يسكنان دنيا البشر، وغني عن حب انتهى نهاية سعيدة، عن أخ صان أخاه ولم يبعْه، عن أمين اؤتمن ولم يخُن، أعلمينا عن زوج وزوجة لم يبادلَ أي منهما الآخر بظلم وسوء خيانة.

«شهرنان».. أخبرينا عمَّن حاول تحسين حاله فحقق حلمه دون سقوط مريع، عن مُتَعَلِّم وعَالِم ومُعَلِّم يبذلون جهدهم بكل ضمير، تغاضي عن تخريبنا بأيدينا لوطن هو حضن وسكن لكل الآمال، عن اغتيالنا لغيرنا بحجة اختلاف رأي أو نصيحة لم تنَل إعجاب متلقيها، عن تعمد الأبناء ظلم آبائهم، والعكس كثيراً صحيح، عن مساوئ كثيرة تستعمر فينا الأرواح قبل القلوب.

يا مليكه، لا تكلي أو تملي وتعودي لواقعنا الأليم، زيِّفي بكل فن وجمال دنيانا الغريبة، تجاهلي تضاد أقاصيصك لمَ ترينه ببشر وبني آدم محبطين، أغمضي عينيك واحكي باستفاضة عن نجوم

بالسماء تنير لنا طريق الصواب، كواكب تعيدنا لسبل النجاح وترشدنا للطريق القويم.

احكي يا «شهرنان» ولا تملي، أخبرينا بكل شموخ أن كل ظلم له نهاية، وأن كل باب مغلق له سبيل وطرقات تحل معضلة غلقه، أن هناك قائداً بطلًا يدرك أن لكل شيء غاية منها يصل لسمو ورفعة وطن، احكي وأمتعي فينا النظر قبل السمع يا «شهرنان».

يا «شهرنان».. غيِّري رواياتك وقصي علينا حكاية عن خيال يمس الواقع، أحضري إلينا شخوصك ليحكوا عمَّا يعتمر رواياتك، يا ذات الخال وخلخلة الخلخال اشجينا بقصة تُغنَّى كموَّال.

«شهرنان» نادت بطلها قائلة:

هلم يا شاعر تهوى عيون وبريق ابتسامات الفتيات، يا قلب فنان قد أنَّ وتألمَ من ماضٍ مر وانتهى، ومن هوى عشيقاته ذاب وتفتت، تعالَ أخبرني.. هل تذكر من كنت فيهن تتفنن؟ وهل تذكر تفاصيل الشكل والمنظر؟ ولِمَ بِهِنَّ كنت تختال وتتباهى؟ هلَّ

علينا بطل مغوار القسمات، شخص من سَمته تفوح أعذب ألحان الحكايات، ذو بسمة وضَّاءة تريح من عانى الآهات، آه منه ومن نظرات عينيه، ذاك الساهي بريء النسمات.

قالت له «شهرنان» بخفوت أنثى مسحورة: سأذكِّرك ببعض منهن، ولنبدأ بأولاهن: «نورا»، ذات الثغر البنور المغرور، وهاتي الثانية «هناء»، آه ذات حسن ودلال ووصال في دنيا الحلم المبتور، وثالثتهن «عبير» ذات العطر الفواح وشذا ليل وصباح لأيام ملاح متتالية العصور، والرابعة «بسمة»، هي ضحكة كون غرير الأركان كانت ولكنه من قسوة حياة مقهور، وخامستهن «نهى» من نهي وأوامر منتهية منذ أزمان وقرون عانت لتعيش الآتي في عمر مكسور.

كُنَّ سلسلة ساحبة جرارة، كفانا الله منها الشر وأية مرارة، آه يا قلب الشاعر كم تهوى الفتيات، وتعشق التغزل بجميلات القد، تهيم بالتغني بحسناوات الطبع، كم فيهن كتبت أشعاراً وعبارات ملتاعة، كم كن وما زلن صاحبات تأثير وخيال مشاغب يملأ كتاباتك يا فنان العصر.

آه يا ربي، ها قد أذَّن الديك بفراغ صبر يقول: انتهى وقتك يا ذات الحسن مع الأحلام، تذكر من كُنَّ وما كان وذكريات أسماء وكتابات، صاح معلنًا انتهاء تصريحه بكلام مباح عمَّا مضى، مؤذنًا ببدء توقيت الصمت بمسافات ضياع وبراح، مناديًا على العباد أن حيَّ على الفلاح، حيَّ على العمل، على التعب لنيل خير رزق ببركة الصباح، قائلًا:

توقفي يا خيالات أحلام طموح، وهلم يا واقع معاش، موقظًا للأمل وللتفاؤل، منبهًا للحياة، منومًا لكل خيال وحلم لم يحِن وقته ليرى معه نور الصبح، مبشراً بفرصة أخرى لنيل فرصة جديدة في حب حقيقي يعمر القلب والروح الحزينة.

* * *

عائشة الغزالي

بداية . . لا تعلم من أنا ولا لماذا سأقص عليك قصتي وأقرأ لك مذكراتي، لكن صبراً . . اقرأ معي ولن تندم . .

سأبدأ من هنا، من برنامجي الحبيب، فمن علامات يومي شديدة الأهمية: متابعة برنامجي المفضل «شهرنان»، موعده مقدس للمذيعة حنان الزواوي، أُحبُّ متابعتَه يوميًّا في تمام الواحدة صباحًا، وإعادته باليوم التالي في السادسة مساءً.

يخرجني عن دائرة أفكاري ووحدتي، في فترة كانت فارقة جدًّا بحياتي، كنت أستمعُ إليه وأنا أُراقِب من نافذتي الصغيرة الطُّرقات بكل ما فيها من بشر وكائنات تتحرك بهدف أو من دونه.

أنظُرُ للسماء لأناجي الله وأبوح له بأسراري وبما أُخَبِّئهُ حتى عن أمي، أتمنى لو عُدتُ ثانية لسابق عهدي قبل أن أمر بما مررت به من أحداث ومصائب وأهوال.

سأقصُّ عليكم إحدى حلقاته كي تحكموا أنتم معي . .

«شهرنان» . . قصتي أنا أغرب من الخيال . . لا، بل هي واقع تُعايشه المئات من الفتيات على الرغم من ظن البعض أنه خيال؛ فصديق حبيبي يتقرب مني يفعل كل ما أرغب ويتمنى لرضاي النيل، يسعدني بأمور كثيرة، يحزن لحزني وأكثر، يتقرَّب بحنان واهتمام محبين، يحاول دومًا على الرغم من الصد والهجر البادين مني!

أما حبيبي فهو مبتعد عني، مُتجاهل مُتنكر مُتخفٍّ، وكأني قميصه ذو اللون الأجرب يعاملني، أعاتبه وأجرح كرامتي بمباشر لوم وعتاب، أحدثه كثيراً وكثيراً، لكنه دومًا يعلم كيف يُلهيني بالكلمات لأصمت وأنسى، ثم يعاود الكرَّة . . لأموت بداخلي مرات ومرات بجنوني، أعاتب فيكرر كلماته بحنان يأسرني، تأخذني معها لعنان سماء الحرية وغيمات الأمطار تسكنني، لتنير سحب السماوات نهاري، أرى نجومًا لامعة وكواكب ونيازك منحنية بجلاء لي . .

معه أعيش حياتي كأميرة أو ملكة لخيالي وقت صفائه، لكنه دومًا صعب قاسٍ لا يراعي حبي، يثير غيرتي والرغبة لتملك قلبه

بسكناتي وخلجاتي، ماذا أقول؟ ماذا أفعل؟ أيعجبك هذا؟! ها أنت قد أثرت جنوني وتبعثرت مني كلماتي، حبيبي.. لا تجعلني رجاءً أقارن بينك وبين سواك، ظالمة مقارنتي لهم ولك، فالخاسر أنت، على الرغم من ذلك متملك لقلبي، مسيطر على عقلي، روحي مستباحة منك، القواعد لك دومًا تُخالف لتفوز بجدارة، فبكل هدوء أغيِّر قواعدي لأمنحك النصر.

يا بشر.. يا «شهرنان».. ليخبرْه غيري بمراعاتي، فالحب على الرغم من جماله متعب صادم قاسٍ، وأنا منه لا أريد إلا أشياء بسيطة: عمره، والروح ملك لي خالصة صافية، هذا فقط والحب الكامل وحياته.. أليست أشياء بسيطة؟!

معه أشعر بسعادة ولحظات مريحة، محادثات تنسيني العالم والدنيا، أوقات قليلة متفرقة تعوِّضني حرماني من حب يمثل حب العمر بقلبي، يجعلني أعيش لحظات تنسينا معًا آلامًا توجعنا، لكن أبدًا من داخل قلوبنا لن تزيل ما حدث من جرَّاء استئصال غاشم لوجوده بحياتي بعنف ونذالة.

الأمر ببساطة محاولة للالتفاف على شيء حادث يؤرقنا، استمرار لحزن لا سبيل للفكاك من براثنه وشباكه، ما يقتلني صراعي مع نفسي، فأنت الحبيب وأنت المُنى، لكن النصيب ويدك قد حكمتما، أنت هناك وأنا هنا، وآه من قدرٍ قد حكم، يتعبني نداؤك على الرغم من البعد وإعلانك حبيِ وغرامي وتعذبك بفراقي، لكن ماذا أفعل يا مليكي المنادي بعذاب من بعادي وكل هؤلاء النساء بعالمك؟ تجعلني أتساءل: أتبيع وتشتري كسلطان قد ملك صكوك الغرام، أم أنك هارون العصر الحالي ومن الجواري الحسان قد وُهبت؟ أورودهن تَشُمُّ وتختار بتنوع ماَسًا وذهبًا؟ أتعيش الحياة متنعمًا كملك يأمر وينهى، يقرِّب وينفي؟ كل هؤلاء الحسان بحياتك وتدعي الفقر دون الحبيب المغترب!!

تستغل سلطانك وصك حبك بقلبي لتؤثر في قرار نصيب قد حكم، تعلم أن في عينيك عالمًا أعيش فيه عصور غرام، آتيه وأضيع بين أودية وجبال هيام تسكنهما، أغرق ببحار ناعمة من موج حنان ارتواء يحويهما، في عينيكَ رياح تقتلع أحزاني لتتركني طفلًا وليدًا بأجوائك.

في عينيك غابات تخبئ آهاتي وترسل لي فرحًا يعبِّقني، في عينيكَ دُفٌّ ومِزمار يُسلِّياننني لتنطلق من جمر بوحي أشهى الألحان، بهما حب وسَهاد يغمراننني، يُنسياننني الآلام، في عينيكَ عاشقة للغرق مستسلمة لا أريد حتى تنبيهًا من غافلٍ مَرَّ لينقلني لواقع الأيام، من حبكَ وهواكَ الغالي أنهل شهدًا لتنيرَ حياتي، أنت عطر أيامي وخمر ليلي الحلال المحترقة بوحدة هجر وفراق.

لكن.. أهذا إغراء كاف لأنسى واقعك وأعيش داخل أوهامي لأُجرح ثانية بأفعالك؟! هذا صراعي مع نفسي قرب قاتل أو فراق يعذب، حب خائن أم حبيب ضعيف؟ أقترب متناسية واقعنا، أم أبعد لأُنجي عقلي من هلوسة صراع دون طائل؟

آه منك حبيبي، أخرجني من هذا المأزق، اخترتَ البعد مرة، فلمَ عدت لتشاكس قلبي وروحي من جديد؟ أتحبني أم أنا تسلية لوقتك بحب قديم؟ لم أعد أدري أو أستوعب أحداثي!!

تعبت وتشتَّتَ التفكير بين ما أحب وأريد وما أنا مضطرة لمعايشته يوميًّا في حياتي، أحب غادرًا يتباهى بغيري وفي الخفاء ينادي بحبي، ولا مجال لأحب شخصًا آخر ينادي ليل نهار بحبي.

حبيبي . . لستُ بديلًا ومُسكنًا، سُحقًا لك!! فأنا لست ببديل عنها، لستُ بمُسكِّن تنسى به أحزانك أو غدر أصفيائك، ارحل بهدوء ولتأخذ لعبك، حبك، كلماتك، أشياءك، لا يلزمني شخص منقوص مبتور يتلوَّى في جراحه.

لست بدواء لعصفور مذبوح يئنُّ بمشاعر قاتلة، ما زالت تتأرجح بتذبذب بين كنت وأكون . . يا الله، لِمَ أفقد إيماني بربي ولا أمتطي صهوة حصان بري جانح أشعث يجري دون لجام وفي مدار الدنيا يقيدني، هائمة دون دليل أو نقطة وصول لأشيائي حبيباتي؟! لا أرغب بتنين خلفي يقذفني بلهيبه في كل أوان ومكان، اذهب يا هذا، لا أرغب بأنصاف رجال، فهو أمر يثير الغثيان، أتهرب من تَخَفِّي ودهاء تلوُّن الحرباء لتقذفني معها دون مبرر في حرب شعواء؟

لستُ ببديل ومُسكن مُطيب، فكل هذا هباء . . وهيا أخبرني، لِمَ أحضرت هذه الثالثة؟ أتتلاعب بنا؟ أتخبرني بأن هناك من تعشقك، من تهيم بأرضك . . بسمائك وضيائك، من تعشق تراب قدميك وهواء أنفاسك المعطِّر للروح؟

أتحطمني بها لأهدأ وأعود لصقيعي مع أدراج الرياح؟ أهداك عقلك لقتلي بغيرتي واستخدم أغبى سلاح؟ أتريد مداواتي بالتي كانت هي الداء؟ أذاك صحيح؟! أتعتقد أنه لا يفل الحديد إلا الحديد فتتركني أراها؟ سُحقًا لك!!

لِمَ تقسو؟! تعلم أن القلوب بيد خالقها، ما أشد قسَوتكَ! القلبَ معك يومًا ويومًا آخر سيذهب عند الله، يالغبائك يا رجل!! أتعتقد أنك ستجمعنا بحبك؟! أنعالج ما بنا من مشاعر بعيدًا عن عالمك؟! لِمَ أحضرتها لتعذبني وتعذبها؟ ماذا دهاك؟!

أيا ربي.. ثبِّت عقلي وارحم قلبي من غباء مشاعر وأحاسيس. أيا ربي.. رتِّب فوضى غرام استعمر قلبي. ربي احمِني من شرور تتملك نفسي، ألهمني الهدى والعقل الرشيد. يا ربي.. ارزقني من يأخذ بيدي لطريقك القويم.

* * *

أرأيتم؟ هذا برنامجي المفضل، برنامج قصصي، سمعته حينما كنت أعيش بين جدران وحدتي، بلا صاحبة أو رفيقة، بلا إخوة.. فقط أمي وأنا.

فترة عصيبة كنت أشعر فيها دومًا بالتعب.. فقد أصبحت عبئًا حتى على كاهلي المُتعب.. ضائعة.. خائفة لا أعلم مِمَّ.. أبحث عن أمان حتى إن كان سرابًا زائفًا.. أشعر بضياع غريب يملكني، يتحكم بتلابيبي.. كنت أريد بعضًا من الراحة النفسية قبل الجسدية؛ فروحي تؤلمني.

يعتصرني إحساس بالضياع والإرهاق، أريد راحة تنعشني، تعيدني للحياة.. أشعر بالاختناق من خيالي وظنوني وأوهامي أكثر من واقعي وخنقته.. كنت أحتاج فرحة كبيرة تملؤني، تعيدني لدنيا البشر كبسمة على الشفاه.. أريد زلزالًا وبركانًا يغيران خريطة وطريق كل ما أنا أمثله.. باحتياج للشعور بالحياة، أن أولد من جديد، أريد أملًا للحياة، فنحن بالحياة أطفال، تؤلمنا كلمة، وتعيد إحياءنا أخرى، فأدام الله لنا أحباءنا؛ فهم سبيل نجاتنا.

كنتُ مهلهلة من كثرة الجروح . . أطلب من دنياي الراحة والهدوء والموت . . كنت أرى أنها لا تراعي فيَّ ذمة أو ضميراً . . كنت أسهر أطلب الرحمة فالروح منها باتت تشتكي . . ومن الأنين زادت الجروح ، كانت غربتي من نوع الاغتراب الذاتي ، اغتراب نفس وليس مكانًا ، هو ألم وتصدع ذات ، تخلخل للروح ، تفتت لقلب بات من فرط الألم يعاني الهبوط بالروح للحضيض .

كان عليَّ المرور بمعركة فاصلة لأنجو مما أنا فيه ، بيني وبين نفسي . . موتي فيها محقق وسط كم البؤس والعناء الذي أغرقت ذاتي داخله ، سبيل النجاة الوحيد المتاح كان محصوراً بفوزي بقلب «مازن» ، أو الموت ؛ لذا أدعو ربي أبغى الغفران .

اتخذت خطوات دفاعية ، أهمها : البعد عن البشر وعدم الاختلاط بأحد ، كثيراً ما تكون المسافات حافظة وليست فاصلة ، فلله دَرُّ بشرٍ بالقلوب أساس على الرغم من استحالة الاقتراب ، أو انتفاء تحققه ، كم كنت أتمنى لو أصرخ وأعلنها بصوت عال يكفي : اكتفيت منك يا دنيا حد الثمالة ، تعبت ولم تعد لديَّ طاقة ، أُرهقت من تمثيل دور الجبارة ، صمتًا . . صمتًا .

أريد لحظتَي ضعف علِّي أجد بعضًا من الراحة، آه من وجع سنواتي وانكسارات ظهري وضياع عمري، باتت الروح كزجاجة عطر مشروخة، لا انكسرت وأخرجت ما بها لبارئها، ولا هي بالجسد مستقره مستكينة، لمَ الذعر يا روحي؛ فقدرك مكتوب ومنه لن تفري؟! ولكن.. آَه وآه.. أعلنها: تعبت روحي من هذا كله، وأنتظر الرحمة من ربي القادر على كل شيء.

يا بشر، أخبرُوا الفَرح: يا هذا أنا هنا، هلَّا طرقت بابي رجاءً، بانتظارك أنا منذ زمن، قلبي منفتح يهلل بسعادة للقائك، إنه اشتهاء للقاء السيد فرح، فأنا أعشقك بعقل مجنون، أهواك حياة ووجوداً، نوراً وضياءً آسراً يغطي كل الكون، أسعد الله صباحك ومساءك سيدي الفاضل.

* * *

«شهرنان».. حكاية اليوم عن قصة حب، ليست بين حبيب وحبيبة، هي قصة حب صديق وصديقة، أخ وأخت، مشاغبات وجنون صداقة تعيش بين أرجاء الدنيا، ستشاغبنا الفتاة بالحكاية.

صديقي مشاكس يدعوني لأمور تُجنُّ، يرغب بألعاب تُرعب حتى الجن، مؤذ يتمناني قرينًا لألعابه، مشارك فعال في صولاته وجولاته، لا يدري أني أخاف السقوط من شرفات سماوات عليائه؛ فمَطالبه عاجية النظرة، وأتربة أحلامه دموية، ونجوم حياته نار سحرية تحرق مَن منه يقترب وينسى بشرية صفاته.

ينسى أني إنسان لي مطالب أخرى، أحلام ورغبات وطُرق ودروب بمسالك مختلفة، لكنه دومًا أناني النزعة، ويعشق مُشاغلة أحلامي وكتاباتي.

أحب أيضًا مشاكسته في حزنه لأُثير جنونه وغضبه، أناديه بدلال وأقول وكأني حبيبة تسكن واديه: يا أنت.. تعالَ وأخبرني، لِمَ تبدو ناحل الجسد وشاردًا؟! لِمَ أنت ذاهل عن دنيانا؟! أشعر أن بداخلك بحرًا هادرًا.. بُح بمَكنون صدرك من حزن علِّي أروِّح قليلًا من هذا المارد، لكني ولأثيره أنهيها بجملة: ألسنا أخوي دين وحبيبَي كلمة؟ فلا تتركني وتغادر.. أعشق نظرته الغاضبة، تلك الهزات الأرضية المعتمرة جسده لمعرفة تعمدي تمثيل دور المحبة ببرود.

قد تتملكني حالة عشق بلا دليل ولا عنوان، فأذهب لأغني لـه لأخرج طاقتي من هذا الخيال؛ فهو مثلي ويعلم ألعـابي ولا ينـسى يومًا حاله ليكلفني ونفسه ما لا يطيـق. . أحـب أن أغـني لـه: يـا أنـت، قلبـك صـادق، أعلـم هـذا، قـد يـدمر ويكـسر لأجلـي، وبسعادة.

قلبك يرسم ويملأ حيـاتي بكـل مـا هـو جديـد مزهـر، تظلـل سمائي بغنائك، وضحكتك تحبـسني داخـل روحـك بهيـام، هـل أنت حبيب يعشق دفئي ويتمنى قربي وإن كان الثمن الموت وحيـداً عن باقي البشر؟! صدقًا أعشق ابتساماته عنـد مـشاغلتي إيـاه كـي أخرجه من حزنه لكونه وحيداً دون حبيب.

أنا وصديقي أعزبان، لكن خارج إرادتنـا، ومـع ذلـك نعـيش وسط زمن عات نجمِّله برواياتنـا، نـضحك ونقـاوم حتـى آهاتنـا؛ فنحن من بني الإِنسان أولاد آدم ننتظر الآتي بحياتنا، نحلـم ونـنجح ونفشل. . ومع هذا نخطط لأحلامنا. . أعزبان لكننا نعـيش بـبراءة معًا لأوقاتنا.

* * *

أيام صعبة

ما زلت أتذكرُ تلك الأيام الصعبة . . فهي سبب ما أصابني وحبسني بكرسي ثنائي العجلات لفترة لا بأس بها، لأتحرك بحساب وأغلق على ذاتي، أتقوقع بكل ما تحتويه الكلمة من معانٍ . . حرمتني من حبيبي لفترة طويلة . . ليزيد توحدي مع ذاتي وكوكبي المغلق . . المغلف بالسواد .

أحداث حوَّلتني من طفلة مشاكسة عنيد تبلغ الرابعة عشرة، إلى أنثى في العشرين من عمرها هادئة كسول، لا هدف لها بالحياة .

سنوات عجاف عشتُ منها سنتين وسط أجواء حرب أهلية، كنت بقمَّة بؤسي فيها، ثم ثلاث سنوات أخرى كل ما أفعله هو كتابة كل ما أتَذكّرهُ أو يمر بي من أحداث، أدوِّن ما أسمعه من أصدقائنا القدامى، الذين يأتون أحيانًا للاطمئنان على أحوالنا، ومن أقاويل الجيران القادمين للزيارة أو لتسلم ما حاكته أمي لهم من ملابس، أو لتبادل الأحاديث في جلسات نميمة معلنة مغلفة بدعوة لتناول كأس شاي .

أُتابع ثرثرتهن عبر غـرفتي . . وكيـف لا؟ فمنزلـي مـا هـو إلا غرفة أقبع بها ليل نهار، ومطبخ ودورة مياه كل منهمـا لا يتجـاوز المترين، وصالة واسعة تحيك أمي بها الملابس للجيران نهاراً، لتنـام قتيلة جواري ليلًا، ثم تعاود دورانها في ساقية الحيـاة بـاليوم التـالي لتستطيع إعالتنا.

بين ليلة وضحاها تبدَّل الحال، بعد أن كُنـتُ «عائـشة»، تلـك المدللة من أبيهـا «عزيـز» وأخيهـا الوحيـد «جاسـر» وأمهـا الحبيبـة «حبيبة»، أعيش حياة رفاهية في عز والدي تاجر المفروشات يدويـة الصنع، تحوَّلت بعد فراري مع أمي، مـن الأردن إلى لبنـان، حيـث يُقيمُ عمي «نواف»، إلى فتـاة تعـيش عالـة عليـه وعلـى مـساعداته الشحيحة كل شهر أو شهرين، متعللًا بسوء الأحوال.

يسأل عنَّا باقتضاب وعن أحوالنا، كأنما يخـاف أن نـسأله شـيئًا فعليًّا، ثم يذهب إلى حال سبيله، ولولا خوفه من تعليقات الجيران وأصدقائه لتركنا دون سؤال.

بعد الحادث تحوَّلت لفتاة كسول، أخاف الناس والدنيا، قابعة داخل حجرتي، تحوطني جدرانها الأربعة؛ فهي أماني الوهمي، أصبحتُ بلا هدف سوى تسجيل كل ما أراه وأسمعه في مذكراتي.

حالة خوف من المجهول؛ فهو أكثر ما يُرعبنا صحواً ومنامًا، فوبيا البقاء، بطولة الذات العلنية في مقابل ضعفك أمام ذاتك الداخلية، كان الحب والرضا والقناعة والأحلام في حياتي السابقة مصدر أماني، أما الآن ففي دقيقة واحدة واجهت الموت والخوف بكل أنواعه لأتساءل: ما مصيري بعد الموت؟ ما الذي قدمته؟ وماذا سأنال؟

اكتشفت أنني مجرد إنسان يبحث عن الأمان وسط قلوب البشر فلم يجده، تحوَّلت إلى إنسان يرغب في لملمة شتات الروح، يريد نسيان ما مضى من أوجاع وآلام..

إنسان تائه في ملكوت الحي الديَّان، واهم حالم متخيل لكل الآمال، مجرد إنسان محب للخير فاعل للآثام، بسيط لديه غرور طاووس، محب للحياة متمنٍّ لفردوس الرحمن، متأمل في ملكوت الخالق عابث لاهٍ في دنياه الفسيحة..

أنا «عائشة»، مجرد إنسان، للحظة أعيش خائفة مما قد يجلبه المستقبل القريب من آلام، للخير توَّاقة مشتاقة، وللحب والأمان باحثة بجد، للحنان والحب كنت مانحة، فأنا مجرد إنسان يعيش الحياة مجبراً.

لذا، اعتدتُ وضع آلامي بكفن وحنوط تحت أديم الأرض، أرويها بدموع خذلاني وإرهاقي، أغطيها بدعوات لربي القدير، أزورها بين الحين والآخر داخل طيَّات نسيان ذاكرتي، فأجد خالقي الأكرم والأرحم من عبيده بعبيده عوَّضني وبدَّلني عنها الخير الكثير، فيكفيني وجود أمي جواري.

هذه هي الحياة، وهذه هي الدنيا..

يوم إحباط أسود كأديم الأرض قاتل للإحساس، ويوم ناصع النقاء كيوم النيروز يملؤك بطاقة وحب، أحبك ربي ولديَّ ثقة الكون كله فيك، لكني متعبة.

* * *

«شهرنان» . . هل مر عليكِ يومًا حبيب غـادر أو حبيبـة قاتلـة يصران على العناد وكأن اللؤم فِي الحب هو الأساس؟ أخبرينا اليـوم عن قصة فيها غباء المشاعر هو السائد، ما نهاية المغدور به؟ كلمات إهداء لمن غُدر بها أو غدر به؛ فالحياة بها هذا وتلك.

انزاحت الستائر عن شخص رائع القـسمات كمـا الأسـاطير، بعينين ساهيتين وبصوت رخيم مليء بالقسوة والغرور ينادي علـى فتاة ملقاة على الطريق قائلًا:

يا من تنوح من غدري، وبصخب تثير أقاويـل عـني، يـا مـن تتغنى بأشعار ومواويل تصف هوى كان بها يجمعـني، صـوتك يـا هذه بات يزعجني، وقصك لروايتنا الممزقة صار مؤرقًا لدربي، ما عدتِ تسليننـي بحركاتك، ولا عادت تجذبني أحرفكِ الوردية.

أتريدين سماع حقيقتك عندي؟ فهلمِّي على عجـل واسمعـي ردي، لن أجمِّل حقيقتك ومن أنت فِي حكيي، يـا مـن كانـت ومـا زالت لعبة هواها قلبي، يا سخف أفكارك وسذاجة عقلك أنتِ.

أتظنين حقًّا أنك يومًا كنتِ ملاكي، وقعتِ بفخي وصرتِ من أملاكي، اذهبي فوجودك يثير استيائي وسخطي لكيانك، بعدَ أن كنتِ أمتع نزواتي ولذاتي.

نعم، أنا استمتعت بإيذائك أنت، ووجدت ذاتي الأنانية فيك، عمَّرت رجولتي بشظايا كسركِ، وتطاول بنائي بعمرك أنتِ، على صوت غنائي على حسابك، كنتِ نزوة من ضمن نزواتِ حياتي، أضحوكة بها أُكايد باقي الفتياتِ بسبيلي، ما كنتِ عندها إلا ماء أشربه لأضيِّع وقتي بين الوجبات، ملخص شرحِ لأستكمل درجاتي، سلَّمة أخرى لأصعد عاليًا في سماواتي، بوَّابة أفتحها لأنتقل لأخرى بعد تشبعي ببراءة رحيق رأيته يملؤك، لم تكوني إلا تسلية وهواية كألعابي، فما كنتِ يومًا حبيبة وأملًا بأحلامي.

يا أنت.. أنصتي بتمعن، إن عاد الزمن سأعود كما كنت معك، لنَ أرسم براءة لأرضيك، فأنت كنت عندي وسيلة وغاية، ولأجلك استخدمت كل غواية لأصل لمآرب أخرى في دنيا الغاية.

فهيا، لملمي أوراقك وأحبارك وكفكفي دمعك، فما أنـتِ لـي غير مرحلة بنهاية، ونحيبك هذا لا يمثل عندي سوى إزعاج ذبابـة، فيا أنتِ ارحلي عن واديَّ ودنياي.

* * *

أيلول الأسود وغيوم النهاية

أتعلمون لكم أشتاق لحياتي بالأردن . . يوم كُنا عائلة لا يفرقنا شيء، يجمعنا الحب والأمل، لم يُنَغِّص عيشَنا إلا تناحر الحركات الفلسطينية مع أفراد قوات الأمن الأردنية؟!

والدي لبناني من أصول مصرية، لا يهتم كثيراً بالسياسة ومجرياتها، ووالدتي فلسطينية المولد والجنسية، هاجرت للأردن منذ سنوات طوال بصحبة ذويها.

كان أبي يقول: عيشوا الحياة بسعادة، لكن أن تتصنعوا السعادة فلا تمارسوا هذا الفعل كثيراً، اكتفوا بالابتسامة، فهي كفيلة بحل جميع الأزمات، أما تصنُّع السعادة، فإما أن يحولك لشبح إنسان وشخص لا مبال، أو يوقظك يومًا وأنت تسقط عميقًا في بئر أحزانك دون هوادة، ابتسموا بالله عليكم، ابتسموا، لكن لا تتصنعوا السعادة، فنهايته غير مضمونة العواقب هذه الأيام.

تعرَّف والداي بالأردن، وتزوَّجا زواجًا تقليديًّا كما تقول أمي، عرَّفه عليها أحد أصدقائه، أعجبته فتقدم لها، عيناها كعيون

المها أورثتني إياها، بشعر أسود يتمايل مع تمايل خصرها، لونها الطحيني أثاره يوم رآها فأصرَّ على الارتباط بها، يرى جسدها حصانًا بريًّا نابضًا بالحياة، أحبها منذ النظرة الأولى، أو ربما كما يُحب أن يقول ليُغازلها أمامنا، مما يُثير غضبها، إنه أحبها من الميلة الأولى لخصرها.

أما أمي، فتقول إنها انجذبت إليه لابتسامته الواثقة وروحه الخفيفة، شعرت أنه رجلها الأمين، من تثق في إيداع عمرها بين يديه دون خوف، من تتمنى منحه أولادًا يحملون اسميهما معًا، أطفالًا يرثون صفاتهما معًا بمزيج خاص، كانت تتفاخر أمام الأصدقاء دائمًا أنها ستنجب له أولادًا مميزين.

ورثتُ منها الشكل وتقسيمات الجسد، بعينين بنيتين مسحوبتَي الجانبين، برموش سوداء كثيفة، وجهي بيضاوي يناسب أنفي الصغير، وفمي المرسوم كما زخرفة آشورية بدقة فنان.

ورث «جاسر» فلسطينيتها الأصيلة، ومن أبي الجسد الرياضي قوي البنية، كان ممن انضموا لإحدى الحركات الفلسطينية المتكونة دفاعًا عن قضية يرونها أمًّا وهدفًا وحياة.

أتذكر بدء حدوث اشتباكات مستمرة بين الطرفين (الفصائل وقوات الأمن الأردني)، وقلقنا والفزع المُتَمكِّن دومًا من أمي عند سماع أي خبر؛ فمنذ عام ١٩٦٨ وحتى أواخر العام التالي وهذه الاشتباكات مستمرة بعنف شديد.

حاول أبي كثيراً ثني عزم «جاسر» عن انضمامه للمقاومة، ليركِّز في دراسته الثانوية، حاول إقناعه أنه عن طريق التعليم يمكنه أيضًا خدمة وإفادة القضية، لكن «جاسر» لم يقتنع أبدًا، فقد كان مقتنعًا أن ما سُلب بالقوة لا يستعاد إلا بالقوة ثانية.. أن التفاوض وهذه الأساليب الدبلوماسية ما هي إلا وسائل يتقوَّت عليها الضعفاء، وهو وإخوانه ليسوا بالضعفاء.

كانت أمي تهوِّن علينا الأمر وتطمئننا أنا وأبي، قائلة: إن الأمور ستكون على خير حال؛ فـ«جاسر» بطل ولا داعٍ لخوفنا عليه، هو رجل بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، علينا التفاخر

بكوننا ذويه، على الرغم من أنني كثيراً ما شاهدتها باكية تحتضن صورة «جاسر» جالسة على سريره، لم تكن تستطيع كبح جماح قلقها بعيداً عنَّا.

جاء أبي يومًا واجمًا ليُخبرنا بمَقتَل صديقه «مُصعب» بأحد هذه الاشتباكات، لتبدأ الأحوال تتبدل والخطط تتغير، ما أدى إلى أن يعيش «جاسر» صراعًا خاصًّا بين قضيته وحب أبي الخائف والملتاع على ولده؛ فهو ما زال يراه طفله الصغير، يجب أن يلهو ويعيش سنوات عمره بفرح، لا أن يحمل سلاحًا ويتنقَّل هنا وهناك، يستمر في الهرب من السلطات الأردنية التي تسعى خلفه هو وزملائه.

يرى ساسةُ الأردن أن الفصائل تحاول فرض نفوذ وسيطرة داخل العمق الأردني، إلا أن «جاسر» ممن يرون أن القضية هي محاولة إقامة كيان آمن لمن يعيشون خارج أرض فلسطين، كي ينطلقوا بحرية لمحاربة هذا الكائن المُستَولي على أراضيهم وديارهم غصبًا وقوة.

ذهبتُ لغرفته يومًا لأتحدث معه، لعلِّي أستطيع إقناعه بعيش حياة هادئة كما كنا، فلم أكن من المهتمات وقتها بالقضية الفلسطينية ولم أستوعبها، كل ما كان يشغلني هو قراءة الروايات وسماع الأغاني وارتداء كل ما هو حديث في عالم الموضة.

«عائشة»: جهزت لك ملابس الغد، أتريد شيئًا آخر؟

«جاسر»: شكرًا جزيلًا أختاه.

«عائشة»: هل أجهز لك شيئًا تأكله؟ أوصتني أمي أن أهتم بطلباتك الليلة فهي مرهقة وذهبت للنوم باكرًا..

«جاسر»: أهي مريضة؟ ماذا بها؟ سأذهب لأطمئن عليها.

«عائشة»: لا داعٍ، كانت وليمة عرس «ليلى» جارتنا اليوم وأمي كانت تساعدهم منذ الأمس، لا شيء آخر، لا داعٍ للقلق.

«جاسر»: آه حسنًا..

«عائشة»: أمتأكد أنك لا تريد مني أي شيء؟

«جاسر»: لا، سلمتِ لي، اخلدي أنتِ للنوم.

لم أتحرك من مكاني وتصلبت، لكنني لم أدرِ ماذا أقول وكيف.. لمح «جاسر» في عينيَّ ما أريد قوله.

«جاسر»: حسنًا يا «عائشة»، أدرك ما تريدين قوله، لا أريدك أن تتفوهي به، أنا رجل ولست طفلًا صغيرًا، أنتِ أختي الصغرى، أنا من أخاف عليكِ وليس العكس.

«عائشة»: تعلم أن أمي وأبي قلقان عليك بشدة، أنا أيضًا، خاصة بعد تصاعد الأحداث الأخيرة.

«جاسر»: يا «عائشة»، دومًا ما كنت أحمي نفسي بنفسي، عند الخطأ أتحمل ذنب أفعالي، أشعر بالقهر والعنف والقسوة مما يحدث لزملائي ولوطني المسلوب مع نفسي، أغضب وأثور وأهدر مهددًا الخونة والظلمة مع نفسي، أبكي وأنكسر بضعف وأصرخ بداخل نفسي، فلا سبيل للتعبير عمَّا أريد، حتى سنحت لي فرصة الدفاع عن حقوقي؛ لذا خبَّأت براءتي وطفولتي داخلي، فلا مجال لهما الآن، وطني يناديني، وهذا ما لا يستوعبه أبي.

سأخبرك أمرًا آخر: لم أرتَح وأعلم أن ما أريد فعله حق حتى خرجت للعالَم ورأيت كل شيء على حقيقته، بعيدًا عن دلال أبي وأمي لنا، صُدمت من أشياء كثيرة، لجأت لغيري لينصحني ويفهمني فتعلمت..

تعلمت كثيرًا جدًّا عن الدنيا والحياة «عائشة»، أُهنت وغُدر بي وابتُليت بأناسٍ وما زلت أُتعب نفسي لأني لا أريد أن أكون هامشًا في الحياة، كبرت وتغيرت كثيرًا عن ذاك الطفل المدلل، أخيرًا وجدتني ووجدت هدفي في الحياة ولن أتنازل عنه مهما حدث «عائشة».

«عائشة»: حسنًا، لكن عدني أن تكون دومًا بخير.

«جاسر»: تذكريني في صلاتك بدعوة حبيبتي.

«عائشة»: كم ستدفع؟! (قُلتها ضاحكة).

«جاسر»: قبلة على خدك الأيمن وأخرى على أخيه الأيسر (واقترب مقبلًا إياي في حنان).

«عائشة»: قبلت، تم الاتفاق، أريد الكثير منها مقدمًا، هيا زدني، هناك خمس صلوات يوميًّا (قُلتها باسمةً بدلال).

«جاسر»: هههه.. لكِ كل ما تريدين أيتها الشقية.

* * *

«شهرنان».. هلمي وابدئي سرد الحكاية، الجميع متشوقون والأسماع إليك موجَّهة، أحضري أبطالك ليجسدوا دون مقدمات الرواية.

فُتحت الستائر وهَلَّت الحبيبة مناجية الحبيب قائلة:

حبيبي الغالي..

حبي المجنون لعينيك يا أسمر القسمات يذكرني بقصة حُب «زُليخة» لـ«يوسف الصديق»، كم تعبت وضحَّت ليرضيها رب السموات بنيل مرادها والزواج من عشق العمر، جازفت بالسمعة والثروة والسلطة لتنال قربه، غامرت بكل ما هو مألوف لتنال وصاله.

أتعتقد أني ـ ولو بقدر بسيط ـ قد أشبه قصتها بتعلقي وعشقي لك سيدي، ضعيفة أنا لا أملك قواها وعناد تملكها لتنال هوى الحبيب؟ أتعتقد أني سوف أقاسي في حبك صنوف وألوان عذاب هجر وفراق لضعف إيماني، أني قد أصير يومًا جائزة سماوية من رب عليم قادر لأنهل من قربك وأعوض حرماني في قرب يشملنا، أعوض ما فات ويفوت من أيام بعيداً عن عطفك وحنانك؟

حبيبي . .

أتعتقد أني إذا أكثرت عبادتي وقربي لرب العُلا يمكنني تغيير قدري لأنال حبك وفي يوم أسعد بلقائك وحب حان يغمرني معك بسخاء؟ هل سيأتي يوم أشتم عطرك وعبير حناياكً واقعَ حال، واقعًا فعليًّا منظوراً وليس خيال عاشقة مجنونة متعلقة بأشباًح وأوهام وجودك بقربها؟

حبيبي . .

أتهدأ وتستقر روحي يومًا بجوار روحك في سكينة، ينطلق الفرح من داخل قلبي ليعم الأرجاء بسعادة وغناء وهناء؟ أتعتقد

بصيرورة هذا على الرغم من أنك لست بربع صفات «الصدِّيق يوسف» وأنا من أنا؟! فلستُ بالتائبة الناسكة بعد هوان العشق كالسيدة «زليخة» ليرضيني ربي بنيل هوى وعشق كان سبب جنوني وعزوفي عن غيرك.

ربي.. أشكو إليك ضعفي وهواني على نفسي قبل حبيبي وقبل الناس، أرجو عفوك ورضاءك ربي، فاغمرني بتوبة ومغفرة تنسيني ضعف الحال وتنقلني لمصاف محبيك الأبرار. ربي.. اشفِ جراحي وضعفي في مواجهة الدنيا وأصلح لي الحال. ربي.. عوِّضني بخيرك عن آثام عشتُ بها وتمنيتها بحب وترحاب وحنان.

* * *

«جاسر» والمقاومة

لم يستَوعِب أخي ولا أصدقاؤه، خاصة «مازن» صديقة الأشد قربًا لقلبه وقلبي ـ فهو حبي الصامت ـ أن أهدافهم تعارضت مع أهداف وإرادة الحكم الهاشمي الإيراني.

وبما أن «جاسر» لم يستطِع مقاومة طلبات والدي بالاهتمام بنا أكثر والتخلي عن أصدقائه، لكونه الوريث لثروته ورجلنا من بعده، فقد اتخذ قراراً بالهروب من المنزل.. ذهب مع «مازن» ليقيما مع باقي أفراد المقاومة في أحد المخيمات، مناضلين لتحقيق أحلامهم.

ابتعدَ عنا كي يعود لحربه مع زملائه بمنظمة تحرير فلسطين، لتمر الأيام ثقيلة على قلبي أمي وأبي خوفًا وفزعًا على ابنهما البكر.

حتى جاء صباح يوم ١١ فبراير؛ حيث وقعت مصادمات بين قوات الأمن الأردني ومجموعة فصائل فلسطينية وتصادف مرور والدي من هناك، ليُقتَلَ وسط شوارع عَمَّان، ومعه ٣٠٠ قتيل

آخرين، عرفنا بعدها أن أغلبهم كان من المدنيين. . تساقطوا كما قطع الشطرنج دون جريرة سوى وجودهم بمكان لعبة حُبكت خيوطها لأهداف خاصة.

غطَّى السواد حياتي مع أمي، وأظلمت دُنيانا بعد موت أبي وغياب أخي المُستمر، أُقيل وقتها وزير الداخلية علَّ ذلك يُطفئ فتيلًا مُشتعلًا بشوارع عَمَّان، لكن الأحوال ساءت أكثر، لنفاجَأ بـ«مازن» يومًا آتيًا يطالبنا بضرورة الانتقال للإقامة في مخيم البقعة، مثلنا مثل الكثير، كي يطمئن «جاسر» علينا؛ كوننا وسط أناس يحموننَا، رتَّب هو و«جاسر» كل شيء فذهبنا معه بعد حمل ما خفَّ وزنه.

بالتأكيد لم أمانع، بل سعدت بالأمر، كنت أظن أنني هكذا ستُتاح لي فرص لقاء «مازن» أكثر، اعتقدت خطأً أنه يقيم هناك، ووافقت أمي لموافقتي.

سأخبركم عن «مازن». . هو أصغر أخ لخمسة إخوة ذكور، ينتمون للفصائل الفلسطينية، وقد استُشهد اثنان داخل فلسطين بإحدى الهجمات، والثلاثة معه في حركة المقاومة بفلسطين، كان

يتنقَّل بين فلسطين والأردن لعمله في التجارة مع عمه منذ صغره، ثم تركه منذ فترة ليتفرغ للإقامة في الأردن مع أصدقائه لجلب المساعدات لزملاء كفاحه في فلسطين، والده استُشهد في صغره، ووالدته قامت بتربيتهم جميعًا على أنهم شهداء منذ الصغر، كانت تخبرهم دومًا أنها أنجبتهم ليحرروها هي وفلسطين، لا ليعيشوا ضعفاء أو جبناء.

يملك عينين غارقتين في السواد، له نظرة ساحرة تلمع في الضوء كما الشمس، كلما رأيتها تورَّد وجهي خجلًا، لأبتسم غصبًا عني فرحًا برؤيته، يداه قويتان تضمان يدي بحنان عند سلامه المقتضب، كنت دومًا البادئة بسلام اليد لأحظى بفرصة مس كفه، يتحدَّث بلباقة شديدة وهدوء على الرغم من قوة صوته، ناظرًا إلى الأرض، وجهه شديد الاستدارة أسمر اللون، طويل القامة، مفتول العضلات كما نجوم السينما.

لم أرَه يومًا ينظر لي أو لأمي على الرغم من حبه الشديد لها، وكثيرًا ما يناديها أمي.

يا ربي، دعنا من هذا.. كثيراً ما اعتقدت أنه يدرك إعجابي وهيامي به.. لكنه لا يُظهر أي رد فعل مما يُشككني في هذا الأمر، أعلم أني واهمة، كيف يدرك أمري وهو غارق حتى أذنيه مع أخي في صراعهما ضد الاحتلال الإسرائيلي؟!

دعنا مني ومن مشاعري الآن ولنعُد للأحداث السياسية، استمرت الأحداث في التصاعد بمحاولة اغتيال الملك حسين بمنطقة صويلح ثم نجاته من محاولة أخرى لتزيد المصادمات وقُتِل حوالي ألف شخص خلال عام ١٩٧٠، ومع هذا استمرت منظمة التحرير في مهاجمة إسرائيل دون مراعاة لرفض الجيش الأردني تجاهل وجوده، ما أوغل صدور قادته عليهم، خاصة أن رد فعل هذه الهجمات يكون على المدن الأردنية ذاتها.

وصلتنا أقاويل وشائعات عن اشتراك «مازن» وأخي في محاولة الاغتيال، لكن لم تُتَح لنا فرصة التأكد، فلا هذا ولا ذاك يأتي لنعلم منهما صحة ما يُقال ويُشاع، لتزيد أمي من صلواتها ودعواتها ليلًا لـ«جاسر»، مقاومة البكاء خوفًا عليه، توشي بها شهقاتها التي تتوالى بضعف، فأين هذه الأم التي تتحمل إصابة

ابنها بمكروه مهما كانت تراه بطلًا؟ نعم، هو بطلها على الرغم من كل هذا القلق والخوف، اللذين زادا أكثر عندما بدأت الاشتباكات تزداد عنفًا؛ فقد أصبحت أكثر ضراوة وتصاعدت أكثر في ٦ سبتمبر ١٩٧٠ حينما خطفت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ثلاث طائرات متجهة إلى نيويورك.

* * *

«شهرنان».. أنا من سأخبرك قصتي، فاتركيني واصبري على حالي وتردُّدي.. أحببت وذُبتُ هيامًا حدَّ الرقص جنونًا على أعتاب عينيه، فما كان منه إلا أن سافر بعيدًا عن كياني مدَّعيًا عدم كفاية حبي، لا لنيل تصريح دخول مدينة قلبه، ولا تذكرة سفن خياله، لم يعد من حقي الإشارة إلى أشرعة غرامه الماسية.

حبيبي ابتعدَ عن هواي، وعليَّ أنا العاشقة الولهانة التعوُّد على مُرِّ فراقه وغيابه وحنين أشواقي لعينيه، التعوُّد على أن فرحتي من داخل قلبي أتوهمها، آه يا قيود سجنتني في عقود وأزمان غابرة.

حاولت إفهامه بصمتي، لم يفهم حبيبي أن به كل الكلام، صمتي بحر غاصت فيه مشاعر صفاء ومودة كانت تجمعنا؛ فبالصمت سماء تسبح فيها أحاسيس هيام وغرام.

الصمت عالم وكون خاص، الوحيد القادر على الرغم من اختلافنا على أن يجمعنا ومن دون كلمات، هو نبرات وإشارات حوتنا وتنهَّد قلبانا وسط صمت الآهات، لكنه تركني ورحل.

حبيبي.. يا عشق يسكنني ويتسلل بخلايا الدم كنمل أبيض ينغزني، يا دبيب النفس ببرود يتنزه بخفوت داخلي، يا حب يستعمر عمري ونبراتي، يا كلمة تستأثر بنصيب الأسد من كل حكاياتي، يا من شذب هياكل خيالي بسطو على أعلام أحلامي الرفرافات وشكَّلها كما يتراءى لخياله.

يا شبح من ماضٍ سحيق، زمن روميو وجوليت وغراميات شكسبير وفولتير يجمِّل كتاباتي، يا من روى عطش ليلي بغزوات أساطير تحتل النفس والتكوين بهدوء السلاطين، هلَّا أخذت ظلك بعيداً عني؟

أنا ما بين فكرة وأخرى أتنقَّل بين سحب خيالي معك، أسبح وأطير لألمس قمر أحلامي بين أحضانك، لكني دومًا أسقط مستيقظة على فراقك، لأبدأ من جديد خيالاتي معك، وفي كل بداية عالم آخر يولد ويتكون بين فكرة وأخرى لأظل معك.

«شهرنان».. بعد رحيل الأحبة نموت حينًا وندَّعي الحياة حينًا؛ ففي النهاية لا يموت من الحب كثير، ونحيا الحياة شئنا أم أبينا، رغم أنوفنا، وسط جراح وظلم يعشش في قلوب المحبين بعنف، ولن يكون هناك بديل لمن نحب.. لكنها الحياة دومًا تسير.

أيا عيونًا بالدمع الغزير دومًا تسيل بوجع وأنين، أما آن الأوان للكف عن النحيب والعيش بعيدًا عن عالم المنكوبين المكروبين المزيفين؟ أما آن الأوان أن تعيشي بفرح وهناء تاركة الفرح والابتسام في الأجواء لمن حولكِ من المغرمين؟

اتركي البكاء والعويل، ارحلي لعالم السعادة والحنين، عيشي باقي حياتك مودعة لزهورك ولياسمين في قلوب المحبين العاشقين، وحتى للأعداء الحاقدين..

ازرعي الجمال والحب في عيون أحبتك لتزدهر بدلًا من الـذبول والعبوس في وجه السنين، ما الحياة إلا أمور قد جرت بهـا المقـادير على مرِّ السنين، اقبليها واستمري في الحياة مع المطمئنين. .

اسعَدي وأسعِدي وارتقي ونالي من محاسـن الـدنيا بكـل خـير وحسن المحبين، احصلي على ما كتـب لـكِ وعليـكِ. . يـا عـيني الحزينة لا تبكي.

* * *

اختطاف

المختطفون أجبروا اثنتين من الطائرات المختطَفة على الاتجاه لهبط في الأردن، والثالثة اتجهت للقاهرة ليفجروها عمداً، ثم بعد ثلاثة أيام خطفوا طائرة أخرى وهبطت أيضًا في مهبط دوسون (قيعان خنا)، وذلك لمحاولة إطلاق سراح معتقلين فلسطينيين بالسجون الأوروبية.

رُفض طلبهم، فما كان منهم إلا أن أطلقوا سراح الركاب، وفجروا الطائرات الثلاث.. ثم أعلنوا إقامة سلطة وطنية فلسطينية داخل الأراضي الأردنية، لتبدأ رحلة نهاية وجودهم تُخَط وتُحدد.

أخبرني «مازن»، فيما بعد، أن صديقه «عيسى»، الذي كان مع المختطفين، قصَّ عليه مدى توترهم داخل إحدى الطائرات ما بين عدم رغبتهم في تفجير الطائرة وعدم إيذاء الرهائن، وبين قرار مواجهة السلطات الرافضة لمطالبهم ومحاولة إجبارهم على قبولها، وأن ذلك هو ما أوصلهم لهذه النقطة.. مرَّت عليهم ساعات عصيبة، حتى أعطاهم القائد أمراً بالإفراج عن الرهائن وتفجير

الطائرة، ما أدى إلى أن تُقرر القيادة العامة للقوات المسلحة الأردنية بعمان ضرورة توجيه ضربة استئصالية ضخمة إلى المنظمات الفلسطينية داخل المدن الأردنية.

بالتبعية شُكلت حكومة جديدة وكّل إليها أمر تحرير الرهائن بباقي الطائرات وتصفية وجود الفصائل الفلسطينية العسكري داخل المدن الأردنية، التي أصبحت تشكل عبئًا كبيراً وسببًا للفوضى داخل الأردن، وهذا ما حدث بالفعل فيما بعد.

فقد باتت المطاردات بين الأمن والفصائل مُعلنة ومستمرة، أفراد الفصائل مطلوبون أمنيًّا، يتم القبض عليهم والتحقيق معهم عن أنشطتهم بكل السُبل، حياتهم أصبحت كابوسًا مرعبًا، تحولت حياتنا نحن أيضًا، المنحدرين من أصول فلسطينية وأهالي أفراد الفصائل، إلى مسلسل رعب، ما بين التقطع خوفًا على مَن منا ينتمون للفصائل، وبين رعب الحياة ذاتها وسط خضم هذه المَطاردات الأمنية.

قامت الحكومات العربية بتهديد الحكومة الأردنية، وكان ضغط الشارع العربي يتزايد، إلا أن عملية الحشد حول عمان والزرقاء استمرت لمطاردة الفصائل.

أرسلت الحكومة الأردنية مجموعة من الضباط إلى ياسر عرفات للمفاوضات، الذي رفض وأرسل محمود عباس للتفاوض عن الطرف الفلسطيني.

لم نكن نعلم وقتها أن الهدف من هذا التفاوض هو إعطاء الجيش الأردني الوقت الكافي لنصب المدافع في مواقع حساسة وإتمام عملية الحشد، بالإضافة إلى إعطاء صورة بعدم جدية الجيش الأردني في القيام بأعمال عسكرية؛ حيث سُربت أخبار فيما بعد عن أن تطمينات عربية كانت قد وصلت إلى عرفات تؤكد عدم جدية التحركات العسكرية الأردنية.

لكن ما حدث في اليوم التالي هو أن الجيش بدأ بتنفيذ خطة «جوهر»؛ حيث بدأت الدبابات والمجنزرات الأردنية بالقصف المدفعي العنيف على مواقع المنظمات الفلسطينية.

قامت المجنزرات باقتحام مخيمات الوحدات والبقعة وسوف في عمان والزرقاء . . ما زالت أصوات الطائرات وسقوط القذائف من حولي تدوي في أذني كلما تذكرت هذه الفترة، مصحوبة بأصوات فزعة لجيراني، كانت الدماء تتناثر حولنا في كل مكان، كل شيء يطير، رائحة احتراق المخيمات تخنقني، الصراخ والعويل بكل اتجاه، بحث الجميع عن الجميع.

* * *

«شهرنان» . . يا مغردة وسط قلوب العباد، يا مشاغبة ومداعبة لآذان عشاق القصص والروايات، قصي علينا عن ذلك الباسم القسمات والهادئ النبرات، موزع فرحته على كل من هو قاص ودان، هاك الرجل صاحب الضحكات المغرقات، المشاكس بطلَّته لأفئدة العذارى وأجمل الجميلات، احكي عمَّن هوته وملكته العمر تاجًا، ورأته نبراسًا ومناراً بالحياة.

«شهرنان» منادية: هلم يا أنت يا مشاغب، يا من لقلوب الفتيات بدفء دومًا يداعب، يا مشاكس لأقاصيصي وحكاياتي،

هلم وأخبرنا قصة حبك الأثير، احكِ عن تلك الفاتنة الناعمة سارقة قلبك الرفيق.

هَلَّ الوسيم بضحكة خافتة وإشارة موافقة، ليبدأ الحديث بلسان حال تعيس ليُخرج من ماضٍ ظنه سحيقًا حكايته وما آل إليه مآلهما في الختام، شارد الذهن متألمًا لتذكر جرح بقلبه ما زال ولا يزال وسيظل، فقال:

قصتنا تحكي عن شخصين جُرحا؛ فقد رأته ملاكًا ورآها نهر الكوثر، فاعتقدا أنه حب أعظم مما قرآ أو سمعا، قصة قد تُروى بكتب التاريخ البشري كعلامة فارقة في زمن القهر البشري، ظنا حبهما أكبر من أن يُمسخ وتتشوه ملامحه بمرور الأيام، أن طائلة قلوب البشر من حسد وحقد لن تلفح أطرافه أو حتى تضربه، لم يمكر أي منهما على الخلق ليحميا حبهما من فضول الغير.

اعتقدا أنهما زاغا عن عالم يتحامق مع دنيا العشاق، عالم يسير متسكعًا بين الأحبة ليعيث فسادًا وإفسادًا، وبشغف يتصرف بدَعةٍ ليشقي الأحباب، يأخذهما خفافًا بين كفيه ليرميهما ثقالًا

بحمولة ذنب عشق لا يرضي هواه، ولترى الهامات باسقة للعلن تتقصف عقابًا للعيش داخل أحاسيس ومشاعر بريئة.

سُلَّت سيوف ضاربة في عمق الروح رجمًا بهدوء وغضاضة، هَوَّلْت الدنيا لما رأته من حب يسكنهما، كيف؟ ولماذا يصل لخوافق السماوات والأرض؟ قررت فصل قوات انتشار حبهما، التوت عليهما وطوت سجل الحب وبدأت ترسلهما لقفار مشاعر ملل وتبرُّم وضجر وحنين، بدأت ترسل لمجالهما علل وبلاء مشاعر منغصة، أفرغت كبت سنوات الحرمان وشقاء حياة.

قالت ما بينكما مثَارُ عتاب وملام بين البشر، هو انتشاء باطل وأحاسيس مُبْهمَة، لم أسغ حبكما بيدي؛ لذا وجب عليكما فراق وبعاد كعقاب، حبكما سيُدفن بالورى بمشاعر فاترة ويوأد، بدقاق التراب انهدمت عليه أمزقه.

قالت: يا مقدام أنت وحبيبتك لا تخْتالا مرتفقًا بيديك بحب وسيم تملكانه، حبك بنظري فتنة من بلّور سأفرفره ليتكسر، سأترككما متهاويي الأحزان، قشة في مهب الريح تنوحان، سأصل لأغوار نفسيكما لأزيل نزاعات تجذبكما وتحميكما مني،

حبكما غَضٌّ وطريٌّ بمواجهتي سأتركه حطامًا، سأطوح مجاديف نفيس مشاعركما بشراك وحبائل محبكة تحرق حبكما وتتركه رمادًا، ما برحت الدنيا تلاعبهما حتى وصلا إلى تبادل عبارات للثم جراح تغطي حبًّا متمكنًا بالقلب.

آه يا حب متخفٍّ خلف قناع لا مبالاة تفضح، بشدة، فرط مبالاة شديدة بهوى ضائع منهما، أنضجهما مرور الحب وكأنه جاء زائرًا ليزيل مراهقة مشاعر كانت تأسرهما داخل أقفاصها، ليتركهما أنثى عاشقة ذابت في حبيب حد الهذيان، وحبيبًا صلدًا في مواجهة الأيام.

تركتهما الدنيا يحاولان تأويل ما حدث ويحدث، علَّهما يومًا يفيقان من حب ضاع وسط أشلاء الأيام، علَّهما يومًا يعالجان صدعًا شادخًا في زجاج القلب البلوري، يصفيان الروح مما اختلج النفس من تيه وعذاب.

* * *

ذكريات عنيفة

ما زلت أرى داخل طيات ذاكرتي مشاهد وصور جيراني من سكان مخيم البقعة وهم قتلى، تناثر أشلائهم من حولي، أتذكر سقوطي صارخة من ألم رهيب أصابني.

عندما شاهدتني أمي أسقط أرضًا ما كان منها إلا أن صرخت بكل ما يعتمر قلبها من وجع.. شعرت في صرختها بالفزع المُطبق.. أتتني مهرولة لتحتضنني.. أغمضت عيني حاضنة صورة أمي بين جفوني..

أفقت بعدها لأجد أمي الباكية بجواري.. تبكي وتقرأ القرآن..

تهلل وجهها فرحًا بعودتي وإفاقتي.. نادتني: «عائشة».. «عائشة».. آه حبيبتي.. كنت أخشى موتك.. حبيبتي.. أنتِ كل من تبقى لي في هذه الحياة..

لأغمض عينيَّ وأعود لنوم طويل، أخبرتني أمي عندما أفقت أني نائمة منذ ثلاثة أيام، أفيق لأنام.. وهكذا.

ثم جاء وقت معرفتي بأسوأ ما حدث لي عندما أخبرتني الممرضة في اليوم الرابع بأني قد أُصبتُ بالشلل، وذلك عندما أخبرتها أنني لا أستطيع تحريك قدميَّ فتبرعت بمواجهتي بالحقيقة وبأني أصبحت طريحة الفراش، قعيدة لإصابتي بإحدى الشظايا في عمودي الفقري، دخلت أمي وهي تُخبرني وفزعت لكنها فوجئت أكثر ببرودة رد فعلي.

لا أعلم لِمَ استقبلت هذا الخبر ببرود غريب، بل الأغرب هو معرفتي خبر مقتل «جاسر» في أثناء الاشتباكات، فلم تبكِ لي عين، أو حتى يطرف لي رمش، أمري عجيب. لا أعرف لِمَ وهو الأخ الرحيم العطوف عليَّ.

هل قتلت الدماء ومناظر القتلى إنسانيتي ومشاعري؟! هل أصابني تبلد أحاسيس؟! لا أعلم!!

الآن أنا إنسان ميت.. مجرد بقايا إنسان، داخل جسد يتنفس ويأكل فقط لإرضاء أمي «حبيبة»، فقط لأجل أمي أعيش..

جاءني الطبيب، تسبقه ممرضة، للاطمئنان على أحوالي، لفتت انتباهي نظرة الطمأنينة في عين الطبيب، كان يبدو شديد السماحة والطيبة، وكأنما هو ملاك نزل إلى الأرض ليطيب جراح مرضاه.

يبدو جادًّا بنظارته الطبية مستطيلة الشكل، ملامحه السمراء تأسر الأنظار لتنتبه له، يبتسم بهدوء ووقار، وعلى الرغم من توتره لكثرة المرضى، يبدو رزينًا، منمقًا، يتحدث بكل لباقة، بعث في كل أرجائي إحساسًا رهيبًا بالأمن والأمان، أعتقد أنه يبلغ الثلاثين أو يزيد قليلًا.

طلب من ممرضته الشقراء، ذات القامة النحيفة القصيرة، أن تهدأ ولا تشاكس المرضى حولها؛ فهي تبدو فتاة صغيرة لا تتعدى العشرين عامًا، وطلب منها أن تعطيني مسكنًا كي أعود للنوم، خاطبني قائلًا:

اسمك «عائشة»؟ أتعلمين معناه؟

قالها مبتسمًا بهدوء.

أعلم أنك غاضبة من كل ما حدث، خاصة إصابتك، لكنني أردت طمأنتك بوجود أمل في عملية جراحية تعيد حياتك لطبيعتها، أريد أن تعلمي أيضًا أن الاحتمال ضئيل، كما أنها عملية خطرة، ولا يمكننا إجراؤها هنا؛ لذا عليكما التوجه إلى مصر وسأعطيكما بيانات طبيب هناك تذهبان إليه، عليك التشبث بالأمل. . فعليه نعيش، ما حدث ليس بنهاية العالم «عائشة». . الأمل سر الحياة، فلا تفقديه صغيرتي الجميلة. .

لم أهتم بما قال، فأين أنا والذهاب إلى مصر؟ خاصة بعد ضياع كل ما أريده في الحياة، ثم نمتُ من أثر المخدر.

طالت إقامتنا بالمشفى، وكنا نتسمع الأخبار عمَّا يدور بالخارج من المريضات الأخريات، أخبرتني إحداهن أن ضرب قوات الأمن كان عنيفًا جدًّا وقُتل الكثير، وأصيب أكثر، ولقدري كانت تعرف «مازن» فأخبرتني أنها سمعت أنه أصيب بشدة، وهناك أقاويل بأنه قد مات، لأصرخ بصمت. . مات أبي، مات أخي، والآن مات حبيبي.

كي لا أُظهر لأمي جزعي حاولت التلهي عن حالي بتجميع أخبار كل ما حدث في أيلول الأسود، لأضيفه إلى ما بدأت أدونه في مذكراتي، كنت أخفيها عن أمي، على الرغم من علمها بتدويني لهذه الأشياء، لكني لم أشأ إعادة نبش جراحاتها من جديد. .

كتبت فيها وسَرَدْتُ كل ما حدث وما استطعت تجميعه من أخبار من الصحف وذوي زميلاتي المصابات، أو ممن يأتي لنا من العنابر الأخرى من الرجال ممن أُصيب في هذه الاشتباكات. .

أخبرني أحدهم أن فرق المشاة اجتاحت شوارع مدن الزرقاء وعمان وإربد لتنقيتها من المسلحين؛ حيث حدثت معارك ضارية فيها، وكانت شدة المقاومة في مخيم الوحدات هي السبب في دفع القوات الأردنية إلى زيادة وتيرة القصف والضغط العسكري.

هناك حيث قُتل «جاسر» و«مازن»، لا أريد تذكر تفاصيل مقتله، لم يصف كثيرًا ما حدث، إلا أنه قال إن الأمر كان شديد البشاعة، أخبرني أيضًا أن الانتقادات العربية للأردن زادت، لكن الأردن قابلتها بالتجاهل.

ألقى الجيشُ القبضَ على معظم قيادات المنظمات، وفرَّ ياسر عرفات متنكراً بزي خليجي مع الوزير التونسي الباهي الأدغم، على الرغم من أن المخابرات الأردنية وصلها معلومات عن أن ياسر عرفات يحاول الفرار إلى خارج الأردن، فإن القيادة السياسية في الأردن طلبت تركه وشأنه، علَّ هروبه يُخفض من وتيرة المقاومة ويكسر شوكتها.

* * *

«شهرنان».. تعالي لأخبرك قصتي، فأنا من سأروي اليوم الحكاية، أنا العاشقة العنيدة لرجل أصابني بجنون حب صارخ، أناديه وأقترب فيهرب خائفًا من براكين وزوابع حبي العنيف، يتجول سائحًا في البلاد يشكو للعباد حبي الكبير ويراه بحراً موجه مغرق، سأُحضره ليسمع معك الحديث، فهو بالقلب والعقل الملك الأثير، لا ملجأ ولا مهربَ له مني مهما كثر منه التذمر، ولو استصدر أمراً من سلطان الأساطير.

اقترب وتعالَ يا حبيبي، أخبرني.. أتشتكي من فرضي سطوتي على أحرفك وإنارة ليلك الباكي؟! أتريد انسحابي من قلبك المظلم من دوني؟!

أنت يا عائد إلى الحياة ببريق أنفاسي بوهج عينيَّ وكلماتي، أتشترط شكلًا لحبي وعشقي؟! أنا المعجونة بالجنون والشقاوة، أنا الغجرية وسط برودة قلبك النحاسي، أنا نسمة الألماس على صدأ قلبك الحديدي، بتطرفي وهيامي أظهرت معدنك الذهبي يا هذا، فهل ما زلت تشتكي تطرف حبي؟!

استوعب هذا كلماتي خيال واقع وواقع خيال، كما وجودك في حياتي حبيبي، فأنت كما يوتوبيا مدينة أفلاطون المثالية، فكرة متعمقة بداخل ذاتي، لكن وجودها على أرض الواقع أمر صعب شديد الصعوبة في التحقق، والغريب أنك ترضى بذلك باستمتاع شهوة ملحة، لكن لا تفرح، فأنا سأصنع المستحيل وأحقق المعجزات لنكون معًا.

لهذا لا حديث بيننا ولا ملام، لا حروف ولا كلام، اخترت الاختفاء، فعليك مني السلام، لكن لا مجال لك للاختفاء، لا

هذر ولا صور تراها مرسلة مني لك في المنام؛ فلقد أعلنت عليك الحرب ومنعت الوئام، حتى تعلن حبي لكل الأنام، وفي نومي سأشكل معك أنت قرين عشق بهيام، وفي الصحو وبأحرفي سأهجوك حتى تعلن استسلامك للوجد والغرام.

يا رحال متجول بين القصائد والأشعار، لِمَ أصبحت حزينًا ووجهك شريد وحيد؟ يا غريق الأحرف والكلمات وسباح العبرات والعبارات، لِمَ الآهات وإعلان الجروح الصارخة مع النبضات؟ لِمَ عذابك الصامت المتفجر قنابل وهَّاجة بعينيك أنات قاتلات؟ لِمَ الاستسلام يا قتيل خيالك السفاح لسرد الروايات؟ أعلن حبي وسترى الليالي الملاح لأنسيك ما مضى لتحيا الآتي بكل سماح.

* * *

الهروب

سمعت أيضًا أن القوات الأردنية سيطرت على الأرض واستسلم أكثر من ٧٠٠٠ من المسلحين الفلسطينيين وقُتل الآلاف من الطرفين، بعد مؤتمر القاهرة الذي خرجت من خلاله المنظمات الفدائية من المدن الأردنية كاملة لتتجمع في مناطق أحراش جرش وأحراش عجلون مقابل عدم اعتراض الجيش لهم.

قررت أمي ترك البلاد والفرار لأبعد ما يكون، كانت تريد منا الذهاب إلى القاهرة للبحث عن علاج لحالتي، لكنني لم أجد داعيًا لذلك ولم أوافق، في النهاية أقنعتني بالسفر إلى لبنان للإقامة مع عمي «نواف»، استطعنا بمساعدة أصدقاء لأخي «جاسر» السفر، أو بالأحرى الفرار، إلى لبنان، وعلى الرغم من الصعوبات التي نالتنا في التنقل برًّا فإنه كان السبيل الوحيد، فلم يعد لنا بالأردن إلا ذكريات قاتلة بحلوها ومرها.

مجرد ذكريات، منها السعيد؛ حيث الأسرة الراضية القانعة بحياة سلسة اعتادوها، وذكريات مقابلة لأمي ولي يغلفها الدمار والأشلاء بكل اتجاه، ذكرى تركت أثرها على جسدي بهذه

الإصابة التي قتلت فيَّ الروح قبل الجسد، لا أعلمُ ما ينتظرنا ببلد مثل لبنان، خاصة أنها تعاني الحرب أيضًا! وكيف سيستقبلنا عمي «نواف»؛ فهو لم يرَنا مُنذُ سنوات، لكنه يبقى أملنا الوحيد والسند الباقي على قيد الحياة، كانت أمي متفائلة جدًّا بسفرنا إليه، عقدت آمالًا كبيرة على وجوده في حياتنا، أقمنا بالجنوب اللبناني عند وصولنا، واستضافتنا إحدى العائلات شهرًا حتى رتبنا أمورنا، كانت العائلة مكونة من زوجين طاعنين في السن، يقيمان بمفردهما بعد أن تزوجت البنتان وسافرتا للإقامة والعمل في فرنسا، أما الابن الأصغر فقد سافر للعمل في أمريكا مع عمه؛ حيث تزوج هناك وأنجب طفلين، ثم انتقلنا للإقامة ببيت خاص بنا وفَّره أحد أصدقاء «جاسر»، وأخيرًا توصل أحد المعارف إلى مكان إقامة عمي؛ فقد بدَّل مكان إقامته المعروف لنا منذ زمن ولم نكن نعلم الجديد.

أرسلنا إلى عمي أحد الجيران، فجاء في اليوم التالي ليرحب بنا ووعدنا بالكثير، بعد أن سردت عليه أمي ملخص ما مررنا به، ثم شرحت له حالتي وما وصلت إليه من اكتئاب وتقوقع، داعية إياه لإقناعي بالسفر معها للقاهرة لإجراء العملية الجراحية..

كانت تعتقد أنه سيضغط عليَّ ويمارس سلطاته كعم ووصي عليَّ لإجباري على السفر للقاهرة وإجراء العملية الجراحية، فوجئت به يتفق معي على عدم جدواها، وأنها مجرد هدر لأموال دون داعٍ، فلو كان منها فائدة لكان الطبيب أجراها بالأردن، لكنهم أرادوا طمأنتنا فقط.

سمعت أمي تجادله وأنا في حجرتي، كم وددت أن أخرج لإخبارها ألَّا تجادل فهو على صواب.. لكنني لم أجد لهذا بدًّا، لم أكن أريد رؤيته أو رؤية أي شخص.. نادت عليَّ أمي في النهاية لأسلم عليه، وعندما لم أخرج إليهما أحضرته هي إلي ليُسلِّم عليَّ داعيًا لي بالصحة والسلامة.

ذهب ويأتي على فترات متباعدة، متعللًا بحموله الكثيرة وصعوبة الحياة والظروف القاسية؛ فأولاده الخمسة ما زالوا صغارًا بمراحل التعليم الأساسية ويحتاجون لمصاريف تفوق طاقته.

* * *

يا «شهرنان» يا ناعمة، يا حاكمة للمشاعر في كل البلاد. . هلمِ هنا وتعالي لأخبرك عن حبي وما ناله من خطوب الزمان، اسمعيني ولا تتحدثي، فأنا من ستأخذ مجال الحديث لأقصَّ بوحًا كالبحر كلمات وكلمات، سأخبرك عمَّا حدثت به الحبيب يوم عاد بعد الغياب ومفارقة سماء ليلي بعناد:

عُدتَ تبكي وتنوح لافتقاد وجودي بحياتك، تغطيتي لمشاعر ملكية كانت تشملك والآن تؤرق ليلك، عُدتَ لعدم كفاية ما تمنحك إياه حلالك من مشاعر حب واهتمام، تمني مزيد من الحب يأتي عبري، رغبتك في روابط كانت يومًا تحكمنا بخيوط ذهبية بأشعة ماسية، صارت الآن بيت عنكبوت وطارت هباءً منثوراً.

رابطة مشاعر لم تصمد أمام رغباتك أنت قبل إغراءات غيرك بتبديلي وحب أخرى تتوافق وشروط أصحابك، الآن تعود تطالب بحقك في حبي واستمرار ما ضاع بيديك، بفنائي في ذاتك، وتتغافل عمَّا صرنا نعيشه بواقعنا المزري، تتجاهل ما فعلت معلنًا ضعفك وضرورة احتمالي لأنك مني.

أبدًا . . أبدًا لن أعطيك فرصة تحويل حب نقي مر بعمري إلى حب عشيق وعشيقة، حب تتبادل أحاسيسه في خفاء الليل، وسط إجراءات وخطوات سطو مسلح وسرقة لكل الأطراف، خيانة عهد منك لحليلتك وخيانة ثقة مني لنفسي قبل الأهل والأحباب، وضع يشبه سقوطًا في بئر عفنة، نهايته دومًا كارثة مريعة.

حبيبي . . أبدًا لن أقبل تحويلي من زارع للأمل وحياة في دنيا البشر إلى مصاص دماء سالب لمشاعر وأحاسيس تخص الغير دون جريرة، لن أقبل إذلالي بتحويلي لجارية تملكها لإشباع الرغبات، كنت في حياتك ملكة وسأظل، وإن كلفني ذلك موت القلب وكسر عناد عقل ضال، آه منك، كم أنت قاسٍ وعنيد، أناني القسمات، تبحث دومًا عن مصلحتك أنت وإن كانت نتيجتها إراقة وإزهاق أرواح في سبيل حصولك عليها.

صدقًا يومًا أحببتك، وبكل كياني، دعوت ربي أن يجعلني نصيبك ونصفك بالدنيا وآخرتي، دعوت أن يرزقني حبك ويقربني دربك، آه يا ربي . . لقد كانت أعظم أماني وأحلامي، لكنك، في لحظة جهل واحدة، بعت كل ما كان، ذهبت بعيدًا

لتبدأ مع أخرى حياة جديدة، لتوهم نفسك بسطر حكاية أخرى بقواعد وشروط تريحك.

لِمَ عُدت؟ أجئت تعذبني وتريني وجهًا آخر يمزقني إربًا؟ هل عدتَ لتريني ذاتي أنا أمام تجبُّر قلبك؟ أترغب بسحق كل ما فيَّ من أحاسيس بشرية تخاف حصول سواك عليها؟ لِمَ عدت؟ أخبرني. لن أقبل أن أصبح عشيقة رجل كنت يومًا أدعو ربي أن يرزقني إياه شريك كفاح.

* * *

الحياة

قررت أمي البدء بحياكة الملابس، علَّها توفر القليل من الاحتياجات، وكنت أنا في المقابل أتقوقع أكثر، أقضي يومي بحجرتي مستمتعة بالكتابة في مذكراتي، لما أستخلصه من أقاويل وحكايات الجيران وزبائن أمي، ولأبدأ في متابعة مذيعتي الأثيرة «حنان» وبرنامجها «شهرنان». . وعندما تنتهي الحلقة أكتب ملخصًا عنها في مذكراتي أيضًا، بقي الحال كما هو والحياة تسير برتابة حتى جاءنا «عاصم»، صديق «جاسر»، ليطمئن على أحوالنا، سعدت بسماع صوته؛ فهو يذكرني بأخي و«مازن»، رحمهما الله، خرجت لأول مرة أستقبل شخصًا واستقبلته مع أمي، أخبرنا أنه استقر أيضًا هنا في الجنوب، مصطحبًا عائلته معه.

أثارني للجلوس معه حتى موعد انصرافه بما سرده من أحداث الأردن بعد فرارنا؛ فقد قال بأنه ما هي إلا شهور قليلة مرت على الاتفاقية وسرعان ما دب الصراع مجددًا، بعد أن ضاق سكان القرى في مناطق جرش وعجلون ذرعًا بتجاوزات الفدائيين هناك؛ فهم لم يعتادوا هذا الأمر سابقًا.

أبلغوا عنهم السلطات وقدموا شكاوى لرفضهم وجودهم بينهم، استغلت السلطات الفرصة وانتهزتها؛ حيث اجتاحت قوات الجيش الأردني الأحراش وهاجمت رجال المقاومة، قضت على آخر معاقل منظمة التحرير الفلسطينية وباقي المنظمات وكسرت شوكتهم وأزالت وجودهم هناك إلى الأبد.

لكن ما زاد الطين بلة أنه في شتاء ١٩٧٠، قامت سوريا بمحاولة التدخل للدفاع عن المقاتلين الفلسطينيين، كان التحرك السوري لحماية منظمة التحرير غير مخطط له ومعتمداً على معلومات مصدرها قيادة منظمة التحرير ذاتها، وقد كانت معلومات غير مؤكدة بالمرة، بينما القوات الأردنية كانت على علم بتحرك القوات السورية.

لذا فوجئَت القوات السورية بعنف رد القوات الأردنية التي نشرت قوات كثيفة سُميت قوات الحجاب، كبَّدت القوات السورية خسائر فادحة وانطلق سلاح الجو الأردني لتغطية الهجوم، بينما لم ينطلق سلاح الجو السوري.

أُعلن فيما بعد أن القيادة العسكرية السورية قد انشقت، وأن الفريق حافظ الأسد كان محتجًّا على تدخل القوات السورية فيما يحدث، وأنه هو من رفض إطلاق سلاح الجو السوري، الأمر الذي دفع الجيش السوري للانسحاب مخلفًا وراءه خسائر فادحة.

ثم توسطت السعودية لدى الأردن للسماح للسوريين بإدخال شاحنات لسحب أنقاض قواتهم المنسحبة من شمال الأردن، بعد ذلك، قامت الحكومة الأردنية بطرد الفصائل الفلسطينية إلى لبنان، لتشتعل الحرب مجددًا هناك.

فقد أسس ياسر عرفات ما سمَّاه البعض «جمهورية الفكهاني»، وهي منطقة خاضعة للسيطرة الكاملة للمنظمات الفلسطينية داخل بيروت، أخبرنا أيضًا أن «فتح» أسست منظمة أيلول الأسود، التي كان هدفها الرئيسي هو الانتقام من جميع الشخصيات التي أفشلت وجودها السياسي في الأردن، فقامت بعدة عمليات انتقامية على الساحة الأردنية.

لكن ما أعاد إليَّ بهجة الحياة والأمل في مستقبل أفضل نفي «عاصم» مقتل «مازن» عند سماعه أمي تدعو لـ«جاسر» و«مازن»

بالرحمة وأن يوسع الله في قبريهما هما وزملائهما، ليقول لها: انتظري.. انتظري، ما زال «مازن» على قيد الحياة أطال الله في عمره، من أخبركما باستشهاده؟ ثم أخبرنا أنه أصيب بشدة ولكنه لم يُقتل، انقطعت الصلة الآن بعد كل الهرج والمرج اللذين حدثا، ولا يعرف أي أخبار عنه أو عن مكان وجوده. شعرت وقتها بالحياة وأن قلبي عاد لينبض من جديد، لأبتسم لأول مرة منذ شهور، وينشرح صدري أخيرًا قليلًا.

* * *

«شهرنان».. جاء دوري، وأنا عاشق أريد عتاب الحبيبة، فاتركي لي مجال الحديث لهذه الليلة.. حبيبتي.. آه منك لو تعلنين رغبتك بحبي، وبأشعار ومواويل تغني لقلبي، يا صاحبة العينين السوداوين ورسم الكحل المجنون..

تملكين شقاوة وكبرياء وكأنك بالجان مسكونة ومعجونة، يا أنت.. العيون بك تائهة، يا غاليتي.. بملكوتك برب السماوات أنا مفتون وأعاني.

يا من تصف لحالي بدقة فنان وطبيب نفساني، ومن أوجاعي تعالجني، لو أعلنت موافقتك على حبي سيكون قراراً صائبًا وحكيمًا فلمَ قولك إنَي سأكون عليك جانيًا؟ لمَ تسألين هل سيكون حبًّا فعليًّا أم أنه هرب مما يشغل بالي؟ وهل يشغل بالي إلا أنت يا سر شجوني؟ يؤرقني ظلمك، فأنت النادرة وصفاتك ماس غالٍ، فلِمَ أكون لحبك وجميل صنيع مواقفك بائعًا برخيص الحالِ؟

صدقًا أراك ملاكًا ينقي حياتي وطموحاتي وآمالي، مع أني أرتعب من كوني قد لا أعوِّض أحلامك بقربي وحياتي، كوني لي ملجأ وأمانًا لا من اختار قتلي بالفراق وابتعد عن أيامي وليالي بقسوة وظلم وهو متعال، معك لا أخاف، وأأتمنك على ذاتي وكرامة حبي وآمالِي، فلا تكونيَ خليفة من دمرني في تدمير ما مني باقٍ.

أنا عاشق غير العشاق، لست بعاشق أنثى تأسر كلماتي وأحاسيسي، لكني عاشق لحروفي المنطلقة من داخل خيالي رأسًا إلى أروقة كتاباتي وأوراقي عنكِ، أنا عاشق للحب ومشاعره، عاشق لإحساس الحب والهيام، ولفكرة الوله بشخص مجهول،

عاشـق وغيرتـي نـار بجنـون أيًّـا مـا كـان سـببها أو سـبب ثـورتي وجنوني.

أنا يا حبيبة القلب رجل يعيش الحب بمجون، عفيف وحنون، عاشق لإلهامي ومن يلهمني، عاشـق دون عـشيقة أو حتـى حبيبـة معروفة، عاشق دون قيـود بـشرية، لـي قيـودي الخاصـة، عاشـق يحكمه حلال وحرام وممنوع ومرغوب، أدغـال العـشق وإحـساس الحبيب.

أنا متجول سارح ليل نهار، وفي كل يوم أبدأ مع حبيب خيالي قصة حياة؛ قصة عشق وغرام، في كـل يـوم أنـسج خيـوط الحـب بيوت حنين، عناقيد فرح وهنـاء، في كـل يـوم أكـون مـع الحبيـب فتتحول الدنيا سحابًا بين النجـوم وسـط ضـياء الـشمس والقمـر، قنديل هوى وعشقًا كبيرًا، فهلا منحتني حبك لأنهل مـن عـشقك دون حدود.

* * *

الفصل الثاني- حياة موازية

نهاية أيلول الأسود

أخيراً انتهت مأساة سبتمبر ١٩٧٠ الدامية في الأردن بتصفية المقاومة الفلسطينية ضد إسرائيل، استراح الملك قانعًا بثبات عرشه لمغادرة الفلسطينيين مملكته، محتفظًا بقنوات اتصالاته السرية بالإسرائيليين، الذين استراحوا كثيراً من تهديد الفدائيين في جبهة حساسة، تعتبر امتداداً جغرافيًّا للمقاومة في الضفة الغربية.

قالت لي أمي: إن الفلسطينيين لم يجدوا أرحب من قلوب أبناء الجنوب اللبناني؛ لذا أقاموا بينهم، وعايشوا معهم وطأة الاستغلال الطبقي والقهر الاجتماعي والسياسي، لكن مع ذلك فوصول الفدائيين الفلسطينيين سيؤثر حتمًا على مجريات الأمور.

انتهى فصل مهم في حياتي ليبدأ فصل آخر أشد أهمية في حياة لبنان كلها، سأخبركم عنه مع الأحداث، لا تتعجلوا هكذا.. فمع الأيام صدق حدس أمي وحدثت تحولات عميقة في كل مجريات الحياة في الجنوب، أثَّرت في الجميع، مواطنًا ولاجئًا.

أخبرتني مرة أنها تسمع تعليقات الجيران بأن الفدائيين يقيمون علاقات مع «العامليين»، أهل الجنوب، ضد العدو الإسرائيلي، ليُصبح الجنوب قاعدة انطلاق لتسللهم لضرب العدو داخل حدوده في تصعيد دائم لا يتوقف، ما سبّب صداعًا مزمنًا لإسرائيل، تسانده الحكومة اللبنانية، فلقد أسست فتح حركة مقاومة منظمة (حركة أمل) ومع ذلك كانت الأيام تمر ببطء وحياتي في لبنان تسير بهدوء ورتابة.

حتى جاء يوم ونادتني أمي مسرعة، ملهوفة:

عائشة.. «عائشة».. هيا استيقظي..

«حبيبة»: نايف المصطفى.. أتذكرينه؟! (قالتها وهي تلهث)..

نعم أمي أتذكر هذا الاسم، لقد سجلت بيومياتي عنه الكثير، وجمعت قصاصات الجرائد التي كُتبت عنه ونشرت اعترافاته وأخباره كاملة، ما به أمي؟ هل هرب من السجن؟!

* * *

«شهرنان» . . هل من جديد؟

هيا أخبرينا قصة أخرى . .

أعلني عن حبٍّ كان في أدراج النسيان حبيسًا .

* * *

عزفت البهية «شهرنان» بصوتها أفضل الألحان، وبسحرها أحضرت إحدى الحبيبات، لتقص حكاياتها فقالت :

أخبرتك أنك انتهيت من حياتي، وأخبر أصدقائي ومن حولي بأنك مالك حياتي وسرها، فأنت الحب الذي ملأ حياتي عبيراً وزهوراً، عطوراً شرقية وفرنسية، أنت كل التضاد الذي عبَّق حياتي بالفرح والسعادة، قوس قزح دخل حياتي لينيرها ويزينها بألوانه السبعة .

حبيبي البعيد مسافة، والقريب روحًا وتأثيراً . .

أحبك . . أهواك . . أعشقك . .

أتمنى لقاءك . . وقربك . .

قسم لنا الله بقدره ونصيبه فراقًا وبعادًا، كما قُسم لك السكن بتجاويف قلبي، ملكًا متوجًا تأمر وتنهى داخل سلطنة وإمبراطورية قلبي المحب العاشق .

قلبي الساهر بسهاد يناجيك ويبوح لك بأسراره كل ليلة مستظلًّا بأشعة ضياء القمر المنير، متغنيًا للنجوم البراقة الساحبة الشافية لأوجاع القلب المكلوم، المداوية لآهات الروح المعانية جرح حبيب سكن الروح وتملكها بصكوك حب وهيام .

حبيبي . . أنعم الله على كل البشر بنعم لا تعد ولا تحصى، أحمد ربي عليها، لكن فراقك أزال طعم حلاوة ما أنعم به عليَّ ليُبدل به مرارة وغصة بالحلق، بسبب هجرك أتمرغ في فراش حرماني منك مهووسة مجذومة، فهل يأتي يوم ألقاك لتنسيني ما فات وتعوضني؟!

آه يا خوفي من ربي ومن سخطي لفراق حبك، أأكـون رافـضة هكذا لقضاء الله وقدره ونصيبي ذنوب جـسام؟! آه يـا الله ألهمـني الصبر وعوضني وارزقني من أفضالك نعمة النسيان.

* * *

استيقاظ مُرعب

لا «عائشة» . . سمعت الآن أن «نايف»، ساعي البريد، شنقه زملاؤه بالسجن، جدلوا حبلًا من ملابسهم وشنقوه.

شنقوه عشية عيد مولده الثلاثين.

يقول الجيران إنهم اعترفوا بالقصاص منه، حكموا عليه بالشنق، فجزاء الخائن مثله الشنق، وليس الحبس.

يا الله . . أتذكر «نايف» وقصته، معرفتنا خبر القبض عليه، واتهامه بالخيانة والعمالة لصالح إسرائيل . .

أين مذكراتي؟ ناوليني إياها من فضلك . . أريد إضافة هذه النهاية لما كتبته عنه، لأكمل حكايته داخل صفحات مذكراتي . . كما تعلمون كتابتها متعتي، إضافة إلى ذلك البرنامج الذي يحكي قصص العشاق، وأملي الخاص في عودة «مازن».

اعترفت لأمي ذات ليلة بحبي لـ«مازن» عندما كانت تحاول إقناعي بالسفر إلى القاهرة لإجراء العملية، فقد ادخرت مبلغًا قد

يكفي، لم تعقب بأية كلمة، قُلت لها بأني سأوافقها على إجراء العملية في حال عودة «مازن» فقط، أما إذا لم تُقدَّر لي رؤيته فلا أريد أي شيء ولا السير في دروبها أيًّا ما كانت المغريات.

أتعلمون؟ كثيرًا ما أستيقظ على صوتها مبتهلًا إلى الله أن يُنجِّي «مازن» من أي سوء وشر ويعيده إلينا سالمًا، كم أحب هذه المرأة، تحملت وتتحمل من أجلي الكثير.

الآن.. هل أخبرتكم كم أعشق صوت «حنان»، الإذاعية، فهو كاسمها حنون، تشعر معه بعزة وشموخ، أتخيلها أنثى شكلًا وكيانًا، وجهًا صبوحًا يصدر صوتًا ذا نهاية كرنَّة سقوط الذهب على سطح من بلور.

مخارجها ماسية، بحديثها العادي فيروز تصدح بالألحان، عند إثارة غضبها ويظهر هذا وهي تسرد الأحداث وتتفاعل معها، يتحول صوتها لأم كلثوم، به كبرياء وثقة، تعنِّف بصرامة الرافعي لزملائه الكتاب.

تجعلك تشعر أنها صياد مستعد للانقضاض على فرائسه ببرامجها، صوتها ببحة خفيفة، كما «نجاة»، ينقلك لعوالم أخرى تُشعرك أنك غزال نقي السريرة.

عرفت من متابعتي لأخبارها في الصحف والمجلات أنها فلسطينية في مُقتبل العمر، عاشقة للأدب والفنون، هادئة بجبروت، عنيفة بفتور، هاوية في دنيا التاريخ الإنساني؛ لذا تقدم برنامج «شهرنان» الخاص بقصص تحكي عن الحب والمحبين بمنظور خاص بها، أجابت يومًا عندما سُئلت: من أنت؟ فالبعض يراكِ واقعية كئيبة وآخرون يرونك خيالية جدًّا، خاصة مع برنامج «شهرنان»! فأجابت: «قد أبدو للبعض خيالية، أعيش الواقع بخيال ورفاهية، أرى الدنيا بنظارة وردية..

أنسجُ بحبالي وأدوات خيالي أراجيح وجبالًا وتلالًا هلامية، تتراقص على أنغام شاعرية، بيوتًا وعمائر وقلاعًا منتصبة تسافر وسط غيوم الحرية، أزخرف سماء ونجومًا وبحارًا وفلجًا مجنحة، أرسم أشجارًا تزهر حبًّا ورومانسية، وأخط بقلمي أعشابًا ملائكية.

أشباح سعادة في الكون متطايرة، وألـون هـواء العـالم بعطـور بحرية، وروائح تنبعث برحيق الحيويـة، أجلـب مـن بائـد الأزمنـة طيوراً وحيوانات منقرضة، أصنع آلات تنقلنا لعوالم متوازية. .

أسَخّر جنًّا وعفاريـت لبنـاء كـؤوس غـنج وهـوى مزدهـرة، أصنع إكسيراً لحفظ القلوب الملتهبة، أزرع ثماراً تطرح للروح المتعبة الأدوية. .

أخلط أشياء تصلح شر نفوس الناس، وأحـصد شـرابًا ربانيًّـا للوجـد والولـه، لأذيقـه للعـالم أجمـع، خاصـة عـشاق الإباحيـة ليتوبوا. .

أبدو للبعض من البحـر أتيـت كحوريـة؛ فأنـا أحـول حيـاتي لفلسفات وأمور نفسية، أغوص بأغواري لأُثير سعادة تبدو نازية، فعلًا أبدو كفتاة من عالم آخر أتيه، قد تكون حقيقة لا خيال. . من يدري؟!».

وتحدثت عـن نفـسها بأحـد الحـوارات الـصحفية مـرة أخـرى وقالت:

«لست من هاويات: أنصاف الأحاسيس والمشاعر الضائعات وسط بعثرة الكلمات، ذرف الدموع على من يتصف بالخديعة والرياء وهذه الاختناقات، بعثرة كلماتي وحروفي ومشاعري على تلك الأرواح الهالكات، الاقتراب من الأحبة ضعاف الشخصية أمام المشكلات.

لست من مغرمي: الأحبة الخانعين لسيطرة أحبتهم بعناد وغباء، الارتباط بمن يهوى المرأة التي تعذبه بجفاء، من يسعى جاهداً لنيل رضا من تبيعه بدهاء، الضائع التائه ببحثه عن حب صافٍ لا يتملكه رياء.

لست من محبي: المراوغة والتلون حسب المواقف، ولا أجيدهما، تعذيب من يقترب بحجة الحب وسهاده، التهرب من مشكلاتي وكأني ما زلت طفلة، الهذيان لإظهار صفاتي وموهبتي كمغرورة.

أنا أحب: الحب الواضح الصريح المعلن، بعذابه وانطلاقه، حبيبي لأنه حبيبي على الرغم من المسافات الفاصلة بيننا، حبيبًا

تتيه الدنيا ويضيع ما يؤرقني بكفيه، حبيبًا معه أذوب بصفاء الحب وجماله».

وأضافت: «لدي قناعات بأننا نحتاج أحيانًا إلى أن نتعرف على شخص آخر يُشبهنا لنهدأ ونستكين، لنكفَّ عن التصرف بطيش ورعونة، نكف عن عفويتنا الساذجة، نتوقف عن إحراج أنفسنا دون حياء، غالبًا يكون هذا الشخص هو الحبيب.

يومًا ستزهر الورود بقلوبنا، تنتشر عطور معبقة بنسيم البحر، ملونة بنجوم السماء، شامخة مروية بحب وغرام صافيين، لأجلنا نحن..

أحب أولئك الذين يغرسون السعادة في أيامنا، الأحلام فوق حد المسموح، أحب كل ما هو صحيح ومضبوط، لا أحب أن أخطئ مع ذلك، ولا أرضى بالموت خوفًا أو ذبحًا بسبب تقاليد بالية».

* * *

«شهرنان» . . تهل ملامحها مثارة بفرحة طفل مشاغب، تخبرنا عن حب شقي مجنون الملامح لأنثى ورجل من سراب الغرام، أنثى تعشق الجنون، والجنون عندها فنون، عاشقة بدرجة قاتلة، هي تهوى العشق بعنفوان موج البحار، تترك لها «شهرنان» مجال الحديث؛ فمعها قد تطول أسلحة الحروف لتقتل كل من يخالف أو قد يناله منها فحيح التذمر لمقاطعة حبها الغريب.

تقول تلك الغجرية المشاعر: إحساس الأنثى سيد قلبي ليس مجرد مشاعر بلهاء، هو غريزة ملأى بحياة تنبض وأسلاك ناقلة لكل الإشارات، تحولها لرموز ومعانٍ مفهومة، هو جسر متفجر وأسوار مكهربة تغتال كل من يقترب وبنيته شر أو سوء، هو إحساس يقوى في ظل الخطر بفقد حبيب أو مالك للروح، وإحساسي دومًا بك موصول، فأنت حبيب معك أصول وأُثير جنون الكون.

أنت يا من تتخفى برداء الدم وتغوي إحساس الأنثى بداخلي وتشاغله، شفتاك لهيب مستعر يجذبني ليُثير جنوني، عيناك

المخفيتان بالأستار قناديل تأسرني، ويا ربي من أنفاسك، عطر شرقي يدفئني، بصيف بارد وشتاء ساخن يسجنني.

أشتهي قبلة تضاهي لدغة ثعبان الأناكوندا، خطورة ضمة بأحضانك تحطمني بوزن فيل عملاق، أتمنى دفئًا يغلف مسامي كإحاطة عصفور بوردته الحمراء، أنتظر عشقك يسكنني كحبات سنبل أخضر ما زال يانعًا ينتظر الري في وسط الصحراء.

أدعو برعد وبرق يخطفانني في صيف أيامي، مطر وثلوج تكفن سقم وجفاء أحلامي، أعاصير وزوابع تحطم أشيائي بنظرة عينيك، براكين وزلازل تهدم أوهامي، بغيابك أنتظرك وأنتظر وجودًا حانيًا وقاسيًا في نفس الآنِ.

أعلم أن الأناكوندا قاتل متوحش، لكني أتمنى الموت على عتبات العشق دون ندم، أنتظر التحطيم بين أنياب فيل مصارع يهواني، الشوك هو ضريبة حب وبراءة تسكن عشاقًا ومحبين بصفاء، حتى السنابل ستزهر بفرح في دنيا محبين، متخطية أية عقبات بالية.

آه من صراع فناء براكين وزلازل وحتى أعاصير وزوابع عشق هي أمطار صيفية وثلوج ناعمة، تفرش أرض العشاق بورود حمراء زاهية، أنتظر حبيبي بصفات متوحشة كالبربر أو حتى مغولي الحب، حبيب الرقة عنوان عينيه، والحنان لون يديه؛ فأنا لا أرغب بحبيب بارد هادئ القسمات، أنا منتظرة حبيبًا فارسًا للغرام، حبيبًا عاشقًا رجلًا حقًّا يشملنا بحب وحنان ووفاء.

فأنا قلبي عاشق للغموض، يحب الصمود إذا كنت أنت من تسكنه، يا وردتي المضيئة في عالم الأحلام، يا حبيبًا أعشقه واقعًا وخيالًا، يا عالمًا رديًّا يحويني ويشفيني من أي آلام، معك سأسافر في الصباح، معي الضياء مجال للهروب، لأهرب من البراح وأسكن سماء غروبك بداخلي، فأين أنت؟ ما زلت أنتظرك.

* * *

رحلة مع نايف المصطفى

ما زلت لا أستوعب أن «نـايف» جاسـوس، أعلـم أن المنطقـة كلها حكت وتحاكت عن هذا الأمـر لفـترة طويلـة، إلا أنـني لـلآن أستغرب فعله، أتصدقين ذلك «عائشة»؟ كيف فعـل هـذا؟ كيـف باع أهله؟ كان يبدو طيب القلب نقي السريرة كالأطفال، «نـايف» ذاك الثُعبان الناعم الملمس، الساكن الحركات، القاتل النغزات..

انتظري أمي، سأقرأ لكِ ما سجلته عن «نايف»، وقصته كاملة كما جمعتها من الجيران والجرائـد، وكمـا جـاء في اعترافاتـه بعـدما قُبض عليه، أتعلمين أين زوجته الآن وإخوته؟! جللهم بالعار، لا سامحه الله، أذلهم وألبسهم شوك الهوان بفعلته تلـك، قتـل والدتـه بدم بارد.

هيـا تعـالي سـأقص عليـك قـصته.. اتركـي هـذه الأقمـشة وماكينتك العتيقة وركِّزي معي..

«عائشة».. اهدئي، فلديَّ الكثير من العمـل يجـب تـسليمه، سأنتهي وآتي إليكِ لتخبريني كل ما تريدين طيلة الليل.

«عائشة»: طيلة الليل تنامين كما فيل مقتول أمي، هيا تعالي وأسرعي..

«حبيبة»: يا ربي.. «عائشة»، لِمَ تبدلت شخصيتك الآن وأصبحت متكلمة لحوحة؟! سأعقد معك اتفاقًا، سأتركك تأكلين أذني كل لَيلة بعد انتهائي من عملي لمدة سَاعة، على أن تعديني بمساعدتي قليلًا عندما يزدحم المكان بالجيران والعمل.

«عائشة»: لا أريد، لا أُحب أن أرى أحدًا.

«حبيبة»: إذًا أُلغي الاتفاق، سأذهب لأُكمل عملي.

أمي.. اصبري قليلًا، انتظري، أمي.. أعلن أمامك فشلي في فن وثقافة الترحاب، بهجة وزخم إقامة احتفاء بشهية فرح بعد غياب، قُبلة مقابلة ودمع وداع، فأنا لقيط في علوم اجتماعيات الاستقبال، برُقي معزة وغلو غائب، ها هو قيد لمح البصر بعد فراق وليالي وجع وعذاب، لكني أفتقد الرغبة والقدرة على حسن استقباله وأفضِّل كوني وحيدة في حضوره.

نظرت إليَّ نظرة قاسية وتركتني، يا ربي. . تريد استغلال الفرصة لتجعلني أختلط بجيراني وبالبشر من جديد، لكنني لا أستطيع، لم تعد لديَّ هذه القدرة. .

بعد صمت لنصف ساعة كامل، صرخت: حسنًا، سأساعدك ولكن بعد انصرافهم. كانت هذه الوسيلة الوحيدة لتوافق أن أحكي لها.

ماذا كتبتِ؟ سوف أنتحر يومًا بفضلك.

«حبيبة»: حسنًا، هي بداية، لا مانع، انتظريني ليلًا، ولمعلوماتك إذا انتحرتِ سيتزوج «مازن» أخرى (آه منها، قالتها باسمة لتكيدني).

انفردتُ بعدها بدفاتري، أرتبها لأُحدد بما سأبدأ حكايتي، والكمية التي سأُخبر أمي «حبيبة» بها، كي ألحق موعد برنامجي المعتاد ليلًا. .

وأخيراً هلت أمي ضاحكة، تطلب قصي حكاياتي، كانت سعيدة لأني أحضرت الشاي لجارتنا «زَيَنَب» حسب الاتفاق الأخير مع أمي.

«حبيبة»: هيا ابدئي وراعي أني تعبة طيلة اليوم، وأتمنى فرد عظام جسدي المنهك على السرير الآن، لأخلد للنوم، حسنًا ابنتي الجميلة.

«عائشة»: حسنًا أمي، لن أطيل كثيراً، هي ساعة ثم سألحق موعد برنامجي وأتركك تنامين بهدوء، هل أبدأ؟!

***

نايف المصطفى

«حبيبة»: ابدئي..

سأخبرك بموجز عن حياته، نايف المصطفى، شاب من أبناء الجنوب.. فقير الحال، أحب بلا أمل، قاده حلم الثراء ورغبة الانتقام ممن سخروا منه إلى الوقوع في شرك الجاسوسية.

وُلد نايف حسين المصطفى بقرية البستان، على مقربة من الحدود اللبنانية ـ الإسرائيلية عام ١٩٤٢، كان أبوه بائعًا جوالًا للملبوسات الرخيصة، يطوف بها عبر القرى المحيطة، يصطحبه «نايف»، أكبر أبنائه.

فشل في التعليم بعد الابتدائية، امتهن الكثير من المهن ولم يوفَّق؛ إذ كان لا طموح له، همه الأول والأخير السينما وأخبار الفن، وكثيراً ما كان يهرب إلى مدينتي «صور» أو «صيدا» لإشباع هوايته تلك. عندما مات والده، وكان يبلغ الثامنة عشرة، توسط له البعض وحصل على وظيفة بمصلحة البريد.

أتعلمين أمي؟ ما زلت أتذكر منظره، هو كما هـو . . تتعاقـب عليه الأيام وتتبدل الوجوه والأحوال، إلا هو . .

دومًا يدفع بدراجته المتهالكة كل صباح حتـى يـصل إلى الـتلال والمدقات لإيصال بريده المعتاد . . سمعت أنه كـان يحـب في صـغره ابنة عمه «زليخة»، لكنها تزوجت قريبًا آخر لهـا، تـوفي بعـد فـترة قصيرة فعادت إلى بيت أبيها، لكنها ظلت دومًا تصده . .

أتذكرين يوم أرسل إليها خطابًا وعندما قرأته خرجت إليه عند عودته من عمله لتمزقه أمامه في الـشارع وتنعتـه بأبـشع الأوصـاف لأنه لحوح دون سبب، بشع الخلقة، لا تحتمل رؤيته حتى البغال . . ليتركها مجللًا بالمهانة؟ يومها سمعت والدته تقول لجارتها إنه يختبـئ بغرفته باكيًا، وإنه أخبرها أنه قرر نسيانها . .

كل من في حارتنا علم ما كان قد كتبه لها، حتى ما كتبه بعدها ردًّا على ما فعلتـه معهـا، أتـذكرين؟ علمنـاه عنـدما سـرقه أخـوه الصغير منه وأحضره لكِ لتقرئيه له، كـان يكتـب بأسـلوب جميـل أمي، أتذكرين؟

«قالوا في الأمثال: (لو دخل كلٌّ منا قلبَ الآخر لأشفق عليه). . وأنا وصلت معك إلى أعماق العشق والوله والشغف، ولم تحاولي معي، أشفق عَلى قلبك، صدقًا لا أبتغي تعذيبك حبيبتي، بهوى لا ذنب لفؤادك في وجوده بالمسكين قلبي، ليس ذنبك أني رسمتك أميرة عمري ونصيبي، فأنا من جنى على نفسه بالعذاب والشقاء والسهاد، بحبٍّ محكوم عليه داخل الروح والجسد بالفناء والرقاد، ارتميت في أحضان سراب مشاعر خدَّاعات، لهثت خلف حلم طائر في فراغ واهي الغفوات.

كنت أبحث عن حب، كعنقاء الخرافات، ينتشلني، رسمت أميرة مظللة بالسواد تحيطني وتغمرني، عشقت السهاد في خيالات القصص والروايات، صرت أتسمَّع الأخبار والمغامرات المروية، فتوهمت حكايات أحداث فتوحاتي وانتصاراتي، رأيتك لي مناضلًا مخلِّصًا من عذابي وأنيني وآهاتي، أنت لم تخدعي قَلب عاشقك البريء، يا حبا وهوى ملك الفؤاد بكَل أدب واحترام، برأتك مِن ذنب قتلي بغرام ينتمي للأوهام.

من تعذيب روح بالهوى كل ما تمنته أن تلقاكِ، عشقتك حتى الثمالة دون قيد، وما زلت أهواك، أعلنت حكمي بأني من لُطخت بدمائه يداك، جبرًا وقسرًا حاولت باستماتة سلبك الحب والغرام، دون جريرة أو سوء منك، فأنا من حاول الإيهام.. بعشق إلى قلبك الصافي لا ينتمي، لأيام حلمت بكل ما أهواه وكنت أنت الشبيه الأنسب، فلتذهبي حرة أمان الله عليكِ، فلستِ السببَ في هيامي بكِ».

ليحدث نفسه: آه «نايف»، أنت مجنون ضي العيون، العاشق لسحر الجفون، الضائع والتائه وسط نغم همس الرموش، المسبِّح تحت عرش عشق يغطي الكون، أنت.. أنت.. وأين هي منك يا مخبول؟ ظل يفكر طيلة الليل مستغربًا ما فعلت؛ فهو لم يقُل ما يُغضِب، تذكَّر ما كتبه علَّه يفهم سبب ثورتها؛ فهو غير مقتنع بأن منظره هو ما يجعلها تبغضه هكذا، لتقول له إنها تتقزز منه وتنفر منه كل شعيراتها.

دومًا كنت أرى وجهه عابسًا، تعلوه تلك النظرة البائسة التي تغطي وجهه، كثيرًا ما رأيته يودِّع والدته بصوت عالٍ، كما لو كان

يتمنى أن تهمَّ واقفة لاحتضانه وتقبيله قُبلة الوداع مصحوبة بدعاء صافٍ كدعائك لي حبيبتي «حبيبة».

أعتقد أن بنظرته تلك كان يقول لها: أمي.. قبِّليني.. عانقيني.. اقتربي.. بحنانك اغمريني.. عن العالم بوجودك عوضيني.. لعلك تخرجين من قلبي وسنواتي مشاعر تقتلني.. واسيني عن أحاسيسَ استباحتني لتمزقني، بحمق تشاغل ليلي وتؤرقني.

أمي.. أحبتي فارقوا أحضاني، وعادوا بعد اعتيادي الهجران، ليظلموني.. بعودتهم لنسياني، بعد اعتيادي قربًا يواسيني، يا أمي عن أحزاني غافليني، ومن آلامي اسرقيني.

لا يهم كل هذا الآن أمي.. صحيح؟! لقد نفذ قضاء الله وقدره معه، أتعلمين؟ طبيعة عمله أن يحمل البريد إلى الضياع والدور المتناثرة فوق السفوح، ليعود في المساء مرهقًا معفرًا، كان يبدو من هيئته أن الملل قد خنقه.. بدأت مأساته الأكبر يوم كان يوصل البريد لمنزل عدنان السامري، تاجر الحبوب، رأى ابنته فنفذ

حبُّها إلى قلبِه على عجل، جلست وتربعت، كان يخرج ليلًا لتقوده قدماه إلى حيث يرى من بعيد منزل حبيبته الجديدة.

يتنسَّم رائحتها ويتخيَّلها واقفة في شرفتها، فيستريح ويذهب لينام قرير العين مطمئن الفؤاد، وهو يقول لها: إليكِ أنتِ فاتنة كلماتي، أسرد أحاسيسي ونبضًا غمر أيام حياتي. حبيبتي.. الحب احتواء.. عطف.. شغف.. عشق.. حنان.. أمومة.. أبوة.. أخوة.. وصداقة، الحب دنيا وحياة، كان يتخيَّلها تستمع إليه بإعجاب وحب وتناديه كي تعترف بحبها.

أنت وليس سواك..

رجلي.. وآمالي.. عشقي.. وهواي..

أنت وليس سواك..

غرامي.. وهيامي.. حناني.. وأماني..

سكني، وسكاني..

أنت وليس سواك..

من بهواه امتلكني . .

اخترته واستحقني . .

عشقته وعشقني . .

من له . . شبابي وعنفواني . .

يا قمري ووجداني . .

يا شمس هنائي . . وصوت غنائي . .

أنت وليس سواك . .

من روحه وقلبه . . مطلبي ومغنمي . .

أنت وليس سواك .

* * *

نفتح كتاب ألف ليلة وليلة وتحكي «شهرنان» أسطورة ومغامرة جديدة، سنبدأ حكاية قديمة حديثة، عن فتاة أحبت يومًا شخصًا رأته ملاكًا، ملكته قلبها ومفاتيح خزائن الخيال بأحلامها، كما وهبته العقل بسخاء مهيب.

استيقظت لتجد القصر المهول والحصن المنيع قد سقطا تحت وطأة زحف أشباح السنين، أفاقت لتجد أنها تعيش بحب كالهواء، فراغ كبير يستعمر قلبها، تركت «شهرنان» لها الساحة الآن ومجال الحديث، لتدندن بألحان تُعبِّر عمَّا يجول بخاطرها الحزين، عمَّا نوت أن تفعله بمستقبل أيامها في غياب الحبيب، لتجيبنا عن أسئلة جالت وتجول بعقولنا عن حالها.

قالت: «نعم.. أحببت بكل جوارحي، عشقت حتى الثمالة، ثم انتهى ما كان وما حلمت به، ما توهمت وجوده لأعود وحيدة، فعُدت أُشهرُ أسلحتي لأدافع عن حياتي من جديد، أكَوِّن وأشكِّل حائطَ صدٍّ أمام قلبي، أضعف وأمزق خيوط حبي المنسوجة داخل قلبي بيدي.

عدت أمارس مرونة تميز روحي لأعالج جراحي، أبدأ حياة جديدة خالية من شبح حبيب ضاع في زحام أيام مرَّت علينا، أطرد مشاعر كانت تغمرني. . ضعفت أمام صعاب الحياة، أبدأ بنقاء لأعيش وأولد حرة من مشاعر خدعت فيَّ السنين، أصفي نفسي من حقد على قلب ظلم قلبي الكبير.

عدت إلى حياتي لأكمل رسم حدود جدية تزينها، أختار أفكاراً متنوعة ومختلفة تغلف أسلوب حياتي الجديدة، أحدد أهدافًا أحققها، طموحات وآمالًا أقوِّيها داخل عمري وكل ما هو آتٍ، أتشبع بصفات تقوِّينيً لمواجهة حياة صعبة قاسية.

أخفي بتجاويف القلب أمنية بقرب حبيب يحميني، حبيب يشاركني همي وضعفي وفتور لياليَّ؛ فلقد طردت خارج حياتي أساطير بأوهام خانتني، وساوس قهر وعذاب خنقتني، تغافلت عن ظلم وعتاب وملام.

عُدتُ لأُظهر للعلن حبًّا وجمالًا يحتوياننيً، طموحًا وأملًا في غد أفضل يملأ سنواتي، إشراقًا وتفاؤلًا ونقاءَ مشاعرَ تنير ضي عينيَّ، أخبئ بقلبي جوهرة حبي الكبير، أنتظر من أهبه هيامي وعشقي

من دون حساب، أحلمُ بمن يملك زمام أموري، يُطمْئنُ قلبي أن الأمور ستكون دومًا بخير، شخص مهتم جواري ومعه لن يصيبني أي شر أو حتى سوء، إنسان هو لي وأنا له حائط صد وصمام أمان، حب وأمنية تحققت بقدرة رب رحيم متعال».

الآن نعود بعد أن سمعنا كلمات محبة عادت لتقاوم ظلم حب، نواصل لنقص قصصًا وروايات تملأ الدنيا وحكايات مستمرة، نعيش دومًا في انتظار قصة جديدة في خبايا طيات كتب «شهرنان» الأميرة.

* * *

«نايف» وحب العمر

اعتاد «نايف» أن يسترجع في خياله لحظة اللقاء الأول، ورعشة الحب التي تشبه دبيب النمل بأوصاله، كان يسلِّمها رسالةً من عمها، سألها: «شو اسمك؟»، أجابت بتلعثم: «فاطمة». واحمرَّ وجهها كما بندورة حمراء، سأل عن دراستها فأخبرته أنها في الصف الثامن من التعليم الأساسي، رآها جميلة أكثر مما رآها من قبل وهتف: ست من السنوات تفصل بيننا، يا الهي!

من يومها ظلَّ يفكر فيها وفي سبل الفوز بها، ويبحث عن خطابات عمها ليذهب إليها لإيصالها ورؤيتها.

قرر إعلان حبه لحظة استوقفته لتسأله عن البريد، وقتها هلل ورقص قلبه طربًا وكأن اليوم عيد، أخبرها بحبه بأن منحها وردة حمراء وخطابًا يفوح منه عطر اشتراه خصيصًا لهذا الأمر..

جرت من أمامه فظن أن الحياة قد ابتسمت له وأنها وقعت فريسة حبال غرامه، صيدًا ثمينًا داخل شباك غرامه المثير..

دخلت «فاطمة» غرفتها وأحكمت إغلاقها، خبأت الوردة، فهي أول وردة تتلقاها من رجل، صحيح لا يعجبها شكله لكن تعجبها نظراته المتتبعة لها، محاولته التقرب منها، إصراره على الاقتراب منها.. فتحت الخطاب على مهل وكأنما هو قنبلة شديدة التفجير، كانت تشعر بالرعب أن يُفتح باب غرفتها فجأة على الرغم من إحكام غلقه.. لتجده قد كتب لها:

حبيبتي الغالية «فاطمة»..

لكِ مني ألف تحية وسلام..

لا أعرف كيف أخبرك بحبي، منذ رأيتك أحلم بكِ بنهاري قبل ليلي، أنت يا امرأة ناعمة الخدين سرقتني، فِي عالمك أسكنتني، فهيَّا دوري كالنحلة ولنور حبك اسقيني، طيري وأنيري سمائي وحلِّقي فوق غيومي.

يا حورية وساحرة بلاد أوز شكِّلي أحلامي وآمالي، هلمي كمشعوذة ببلّور وعصا مسحورة أخفيني من عالمي، يا غجرية بشعر أهوج كأمواج الصحراء أحبيني، ومن غضب أيامي وحنين

آلامي اسحبيني وانجديني، هيفاء البلّور من عسل عبيرك اروي أنيني. «فاطمة». . عيناك سحب ونجوم تجذبني، وسفنك أغرقتني.

أنت كائن معجون من نار العشق يلون جنون هواي، كماء منساب بين أشلائي وجنوني، ضميني وانسيني، حبك كرمال متحركة، هيا من شر جنوني اشفيني، آه من أنفاسك، عاطرةً ساحرة كالفلك تغمرني يا عيوني، فلتأتي يا سمائي وبالأرض جذرًا متأصلًا ازرعيني. «فاطمة». . أنتِ حياتي وغرامي فتقبلي حبي وأحبيني.

المغرم بكِ وعاشقك. . نايف المصطفى.

* * *

أسرتها كلماته، لم تتخيل أن هذا المسخ يمكنه كتابة خطاب غرامي كهذا، صُعقت عندما أدركت أنها باتت تفكر فيه، لا. . لا يمكنها هذا، ماذا إذا عرف والدها؟ سيقتلها بالتأكيد، ستسخر منها صديقاتها، ستكون مثار المزح بين زملائها ومدرسيها، هل تحب

هي الفاتنة البهية هذا البشع؟ لن تسمح لنفسها بهذا مهما أرسل إليها، لكن. . .

لا مانع من مشاغبته ومشاكسته قليلًا، بحدٍّ يترك لها مجالًا للفرار، حينما تريد؛ لذا تركت له الباب مواربًا، فاعتاد أن يذهب ليقف أمام مدرستها صباحًا وعند انتهاء اليوم الدراسي، كلما رأته تصنَّعت الوَجل والخجل فتنظر للأرض، فيقتنع أكثر أنها تُحبِهُ وذائبة في بحر عشقه.

مرَّ عامان وهو يراقبها ويسعى خلفها من بعيد، كانت رسائله إليها لا تنقطع، بمعدل رسالتين على الأقل شهريًّا حينما تسنح له فرصة الاقتراب مدعيًا وصول خطاب إلى أبيها من عمها المهاجر إلى أمريكا.

منحها يومًا خطابًا مفعمًا بالحب ظلت ساهرة طيلة الليل تُفكر فيه، وكيف لو كان من شخص آخر أكثر وسامة وإثارة، لو كان فقط يُشبه زميلها «باسل»؛ فهو فتى شديد الصلابة والوسامة، دومًا مهندم مبتسم الوجه وبشوش، يعيبه فقط عدم مراعاته لها وإعجابه بها.

دومًا يتجاهلها كلما حاولت الاقتراب منه، تعشق لكنته الجنوبية ويثيرها سيره بشموخ وسط أصدقائه في المدرسة كما لو كان زعيم الفريق والمجموعة، تُحب مشاهدته يلعب الكرة معهم، تذهب مع صديقاتها يومي الأحد والأربعاء للباحة الخلفية للمدرسة لمشاهدة مباراتهم الدورية.

أمسكت بالخطاب وبدأت تقرؤه من جديد بصوت «باسل» لا «نايف»..

حبيبتي الغالية «فاطمة»..

لكِ مني تحية وسلام ودعوة خير ووئام..

آه منك يا ساحرة ساهية العينين، تتلألآن بجمال منير، وضَّاء جبينك هذا، شعرك يتموج كالبحر ليطير بكل الأنحاء، يا سارحة في ملكوت الخالق بحنين، عينان خلابتان للروح وللقلب سارقتان، سحرك يسحبني لغياهب خدين مثيرين، وجفون تتناغم مع شمس الكون، لقلبي تُثيرين.

آه منك كلك . . بعضك . . قاتلتي بسيفين : سيف شقاوة . . وسيف هدوء مستكين ، ها أنت أملي وبكل عذوبة تجلسين متربعة على عرش قلبي ، وكأن الكون تواضع لجمالك ملك يمين ، يا فتاة سارقة للعقل كحد السكين ، أفيقي للعالم ، ومعي هل تتجاوبين؟ ! امنحيني أمان حبك ، ساهية العينين ، عاشق لقربك فهل تُخبريني أنك تُحبينني وترغبينني؟ !

عاشقك الأزلي . . نايف المصطفى .

* * *

كان أمر حبه قد شاع بين صديقاتها ، كان مجال سخريتها هي وصديقاتها ، تأخذ منه الرسائل ليُقمن حفلة شواء خاصة على شرف قلبه المحترق بعشقها ، هي حفلة نميمة عن «نايف» المتيم وحبه الأزعر لـ«فاطمة» ، تلك البتول الناعمة .

في إحدى المرات ظللن أسبوعًا كاملًا يضحكن على رسالة خاطب فيها «فاطمة» واصفًا مشاكساتها له ، متألمًا من جفائها في حبه ، مطالبًا بأن تمنحه فرصة الاقتراب أكثر ، ليحدثها عمَّا يسكن

قلبه من غرام، يا لهن من قطط مشاكسة عشقن تعذيبه، بإثارة شجونه وحبه لمجرد تمضية الوقت والتسلية.

* * *

حبيبتي الغالية «فاطمة»..

لكِ مني تحية وسلام وعتاب يا منية القلب..

لِمَ تشاكسين قطة فضولي بكبرياء، تلاعبينها همسًا بدهاء أنثاكِ، تدغدغين مشاعري بحياء خبير لأتنمر وأتمنى المزيد؟! قرون استشعاري استنفرت لغيرتي عليكِ من كل الرجال.

يا حبيبة القلب، يا آسرتي.. انطقي.. اعترفي، أنتِ مع قلب طيب محترف الصبر والهدوء، لِمَ الغموض والسكون وابتسام الجبين هو ردك لكل ما أقول؟! أخرجي ما لديك، بوحي بسرك الدفين، أمعجبة أنت أم عاشقة مثلي بجنون؟! هلَ تجذبينني إليك وأجذبك كاشتعال الضوء، أم أني أتخيل وأعيش في الظنون؟!

حياتك حكمة وبالشقاوة مسجونة، عقلك خليط متجانس من هدوء وجنون أشعر بهما من نظراتك الحنونة، حبيبتي . . اعترفي وأريحي القلب الخجول من الظنون، أعاشقة أنت أم عاشق أنا وتلعب بي السنون؟ حياتي وغرامي . . منتظر منكِ خطابًا مختومًا بقبلاتك .

المغرم بكِ . . نايف المصطفى .

* * *

حبيبتي الغالية . .

لكِ مني تحية وسلام . .

يا كرة البلّور أراك تناديننني، يا ساحر سأخبرك أسرار عينيَّ، وببعض اللمسات سأَمنحك سكوني، قبِّل بلّوري وأشعل فيَّ فضولي وسأبحث في الكون كمحارب مغولي عمَّا يبهجك، أقترب وبحبي لحسادك وعذالك سأبتر بسيف موالٍ .

«فاطمة» . . أُحبك بكل ما بالدنيا، فأنت لي الدنيا بما تحوي وما تخفي، أُحبك بكل ما أعرف، فأنت المعلم والتلميذ بصفوفي، أُحبك بكل ما فيك، فأنتِ ضياء النفس والتسبيح والتنهيد.

أُحبكِ بكل ما فيَّ، أُحبك وكفى بحبك دنياي، يا من به ومعه يكون عيدي، ضميني بأهدابك لأتدفأ بخطوط كحلك الأناضولي، اكتبي وغردي يا عمري، انثري أحرفك وسط رماد المستحيل، ربما يفيق الغافلون، وتوقد بدمائهم شموع الغرام ونيران الحياة.

حبيبك الدائم . . نايف المصطفى.

* * *

عندما لم يجد أملًا في تلقي خطاب منها تعترف بحبه، تلمّس لها العذر؛ فهي فتاة خجول تربّت على أصول شرقية يمنعها حياؤها من تخطيها؛ لذا . . قرر أخيرًا اتخاذ خطوة شجاعة . .

قرر الذهاب لطلب يدها من والدها، ولمَ لا؟! فهو متأكد من حبها له كما يعشقها هو . . لكن عليه أولًا أنَ يُعلمها بالأمر كي لا

تُفاجَأ عندما يخبرها والدها فتتلعثم، أو تُصدر تصرفًا يسيء والدها فهمه، لن يجازف؛ فهي شديدة الخجل وقد ترفض نظراً لارتباكها.. ياللأسف.. كان شديد الثقة في حبها له، أرسل آخر خطاب حب ليُعلمها قراره؛ فهو لم يعد يحتمل بُعده عنها والاستمرار في حبها برسائل فقط.. يريد الاقتراب أكثر من نهر حبها المسكر.

* * *

غاليتي الفاتنة «فاطمة»..

أرسل لكِ قبلة على جبينك الوضَّاء..

أريد إعلامك صغيرتي بقراري التقدم رسميًّا إلى والدك لطلب يديك، لم أعد أستطيع تحمل بعدك عني، تلك القيود التي تفصل بيننا تخنقني، حبيبتي.. أعشقك وأتمنى أن يجمعنا بيت واحد لتكوني شريكة عمري..

بعينيك.. أغوص بلا سفينة، بلا مرساة أو مدينة، أهيم، أتوه، وأسبَح بسكينة، أغني لأطوِّق روحك المستكينة، بعالمكِ..

تضمني قناديل عشقك، تتوه خيالاتي بحياتك، تتوهج روحي بكلماتك، عاشق لكينونة أفكارك، وأعيش بآهاتك، كالريحان والنرجس تخيلتك، حبيبتي.. في بحر عينيك غنائي، يا أمان وهدوء لدعائي، يا عشق وغرام بحياتي، «يحميك الله» هي كل ابتهالاتي. حبي.. أنت يا صفو قلب صبوح، معك الهدوء بالكثير يبوح، شقاوتي المختبئة من بؤس الأيام في البعد تنوح، كأميرة أحلام أتيت إليَّ بالروح، ليحيطني خيالك بجموح، بقربك تُشفى كل الجروح، حبيبتي.. تعبَتْ من الانتظار أرواحُنا، فمتى تلتقي نبضاتنا، تطيب آهاتنا وتجتمع قلوبنا؟!

* * *

«شهرنان» هلت تخلخل بأساورها العربية، وتثير الضجة المحببة للآذان بخلاخيل تُزَيِّن قدميها، يبدأ عزف ألحان شرقية وتحكي عن أنثى القمر، تلك التي لا تكفي حكاياتها اليوم وغدا أو حتى بعد غد والغد الذي يليه، فهي لها حكايات وروايات تملأ كتبًا للأساطير، هي أنثى قاتلة عنيدة شرسة من وجهة نظر قصائد أشعار حبيبها.

من خلف الأستار يهل صاحب حكايتها عاشقها، بِبُخار الروايات مغلف، وبعبق التاريخ مزين، يحكي عنها ويقول: هي ملهمتي في عالم الكلمات الذي نادانا ليحوينا، وببراءة سمائه أشار ليسرقنا، وببحاره أمر بإغراق مساوئنا، وببهائه جمعنا بأميرة حس وكلمات لتسحرنا، هي ملهمة كتاباتي.. بزهو أقرأ كلماتها، وبفخر أستشعر ذاتي تناجي ذاتها، وبكل جمال ألمس أحرفها تناوشني، آه منها، هي صديقتي الملهمة، صديقة بأكاليل الزهر تتوج أيامي، يا ملهمتي أعشق وجدانك، فهيا ملهمتي خبِّئي عينيَّ خبئيني، أخفيني حتى عن الزمان غاليتي.

حبيبتي الهائمة بين السحب، الطائرة بين النجمات، تحت سفح حمى الهرم لنا موعد ولقاء، برعاية «أبو الهول» وتعويذات القدم، لأضيء لك القمر شموعًا، وأسقيك الورود مُسكرة، لأطعمك ربيع عمري شهدًا وعسلًا، وبيدي أعزف أهدأ الألَحان لك أنتِ يا أنثى القمر.

حبيبتي.. تحكَّمي في مسار كلماتي لفرض سطوتك على أحرفي، فهي تدخلني لعوالم خيال اللامنطق بهيامي معك،

والقوافي حبس يأسر أحاسيسي ويخنق داخلي العبارات، فأنا عاشق التطرف وبعثرة الأحرف والعبارات، فدعينا من تلك الأحاجي ولتمضي معي في درب اللاوعي بقصائد مغناة من القلب، قصائد مرسومة بشفاه أقلام الهيام، مزينة بورود السحب والآهات، لا تخبريني أنثاي أن أكف عن الغناء لأنثى القمر فهي أنتِ غاليتي العزيزة.

«شهرنان».. اسأليها، لا، أنا من سيفعل.. هيا أخبريني أنثاي.. كيف أحرر سفن عشقي الكامنة بين الواقع والخيال؟ كيف وشباك مرساها بيد قبطان السحاب، أنت؟ يا سلطانة خيال أتيتِ فجأة لإنارة ظلمات سمائي وواقعي، هيا أطلقي «راء».. رداء الخيال ليغلفني، و«جيم».. جمال وصفاء إبداعك ليثيراني، و«واو».. وفاء الكلمات لتُشاغب أحرفي، و«لام».. لحظ القصائد لأولد بها، و«هاء».. هيام المحب ليبدع إلهامي. هيا عبِّري وتكلمي بقصائدك وأعلني في الوجود حياة طفل شاغبك فأطلقت عنان روايات الخيال المنظومة بالأشعار لتكَوِّني رجولته.

أنثاي . . يا أنثى القمر ، إني عاشق سكن وديانك ويتمنى نيل هواك ورضاك ، «شهرنان» . . لَغِّني أغانيها ، ساعديها ، وأخبريها علَّها يومًا تتخذ القرار وتظل معي أنثاي أنا لأكون أنا سيد أنثى القمر وحبيبها .

* * *

صدام

ارتعبت «فاطمة» من الأمر، لكن طمأنَتْها صديقتها ونصحتها بإدعاء المفاجأة كي لا تُثير شكوك والدها، والتعلل ـ إذا شعرت أنه سيوافق ـ برغبتها في إكمال دراستها وعدم الزواج الآن.

في حين اشترى «نايف» قميصًا وبنطالًا جديدين وقارورة عطر برائحة التفاح، ذهب مبكراً إلى منزله ولم يخبر والدته بما ينويه، بعد أن صلى العصر على غير عادته تبركًا، بدأ الاستعداد لحدثه الأكبر وهو خطبة «فاطمة»، استحمَّ كما لو كان يومَ عيد.

حلق شعره وذقنه، كما عريس ذاهب للقاء عروسه، «أنا فعلًا عريس». هكذا قال لنفسه فرحًا، ارتدى ملابسه وذهب إلى المسجد القريب ليُخبر والد «فاطمة» أنه يريده في أمر مهم، سيقول له: لا يجوز أن نتحدث فيه هنا أمام الجيران، دعنا نذهب إلى منزلك عمي، هي فرصة يريد انتهازها للقاء «فاطمة»، تم الأمر كما دبر له.

وافق الأب واصطحبه إلى منزله لمعرفة الأمر المهم، ولو أنه ظن أن «نايف» يريد أن يرسل والد «فاطمة» لأخيه بالخارج ليجد له فرصة عمل، لم يُرِد أن يصدمه مقدمًا باستحالة إيجاد عمل لفاشل مثله، قرر أنه سيماطله حتى ينسى الأمر، كانت ابتسامة الانتصار تملأ وجه «نايف»، فسيرتبط بحب عمره أخيرًا، حتى إنه طيلة الطريق يتخيل «فاطمة» تحدثه: حبيبي أريدك «زيدون» الشاعر في قوته ورومانسيته بالتأثير، كـ«قيس» عاشقًا بعنفوانه وبحبك سكيرًا، لا شاعرًا مغوارًا ولا ساهرًا لنهار مرير، أبياتي لأجلك وأشعاري تنساب كالحرير.

أريد حبك ينطق بعنف بجبروت صمته، سحر غرامك بنظرة عين، أريد لمس قوته، بشفة حانية بأفعال نارية قلبي أحييته، بين ذراعيك شكلتني ولحبك صرت قتيلة، بكفيك اخترق جداول الحياة فيَّ وأحْيِني، بلهيب أنفاسك اروِ عطش عمري وسنواتي، بدفء روحك الحالمة لنقضِ لياليناِ، اعشقني بقوة جبروتك في الحب الحالم ومن الحياة اسرقني.

لنحطم العالم البالي وننتقل لعوالم الخيال السارح، أحبك عاشقي بكل حنان وقوة كفيضان غامر جامح، معك أنسى ما مر وما سيمر من عمري بحب واضح، أريدك حياة ودنيا لنصير معًا بالروح.

دخل «نايف» سارحًا في خياله إلى المنزل، ليجلس كديك منفوش واثق من حبه وحب «فاطمة»، طلب الحاج عدنان من أهل بيته الشاي للضيف، بدأ «نايف» يتوتر؛ لذا قرر أن يُشجع نفسه وألا ينتظر الشاي؛ فهو يريد شربات العرس فقال فجأة: عمي.. اطلب لنا «شربات»، فأنا لا أريد «شاي»، بل أريد الزواج من «فاطمة» ابنتك..

كان اللقاء عجيبًا يحكي ويتحاكى عنه كل الجيران، صُدِمَ والدها من طلب «نايف»، وما كان منه إلا أن طرده شر طردة.. صرخ والد «فاطمة»: يا لك من عريس وزوج ثقيل الظل.. أأزوِّج زهرتي وقرنفلتي اليانعة لك أنت يا بشع الخلقة، يا ضعيف الحال؟!

يا عمي . . أحبها، لينظر له الرجل شزراً، مهدداً إياه بالكثير إذا لم يبتعد، طرده بعنف من بيته ليخرج وهو ينزف ألماً وكراهية لفقره، ولوظيفته، ولوالد «فاطمة» الذي أهانه وطرده، قائلًا: ماذا تفعل أربعمائة ليرة – راتبه في مصلحة البريد – لك ولإخوتك الخمس ولابنتي؟! خرج ليجد الجيران تحلقوا يستمعون لإهانته، نظر إليهم «نايف» بضعف قائلًا لنفسه: أفهم هذه النظرة الحمقاء، تلك الابتسامة الخرقاء، لكني سأتعمد التغابي، كي لا ألوِّثَ روحي بآثامكم البغيضة.

ماذا تقول «نايف»؟ تعلم أن «عدنان» مُحق؛ فهو ينتظر ممن يتزوج «فاطمة» الكثير، ولا مجال لموافقته عليك أيها البائس . .

فكَّر بالسفر إلى الخليج وشاكسته آمال الهجرة، أحس بأنه ضعيف، قشة في مواجهة ريح عاتية، أو إعصار يكسر كل ما فيه . . أحلامه طالت ليبقى في النهاية عاجزاً أمام فقره . . لا نجدة أمامه إلا أحلام اليقظة وأوهامه الخاصة بنجاته من هذا الفقر المُدقع . .

تساءل كثيراً عن حال «فاطمة» بعد هذه الحادثة، هل علم والدها بأنها تُحبه؟! هل تسهر تشتكي للقمر مثله؟! هل تبكي بكاء قلب قبل بكاء العين كما يفعل كل ليلة؟! لِمَ لَمْ تحاول السؤال عنه وعن أحواله؟ هل فتر حبها له؟!

أسئلة كثيرة تراوده، يخاف أن يذهب لرؤيتها؛ فقد كوّن فكرة أن والدها رجل شرير، لكنه ممتلئ حتى النخاع بالشك في نسيانها له ويظن أنها خانت عهد حبه..

قرر أخيراً إرسال خطاب إليها.. يبثها عبره غرامه وعذابه بعد رفض والدها، تحيَّن فرصة واقترب منها ومنحها خطابه كما السارق؛ فقد خاف أن يراه شخص ويخبر والدها فيؤذيه كما هدده إذا حاول الاقتراب منها.

كان قد كتب لها:

غاليتي الفاتنة «فاطمة»..

حبيبتي.. كم أتعذب لفراقك!

يا حبًّا وهبته الروح ونفسي الشجية، فخان العهود وباع الروح الأبية، لا تعتقدي قربي محبة لروحك العصية، ولا تظني بعادي مبغضة لديارك المنسية، يا أنتِ.. العقل لعينيك تأرجح سعيداً بهفواته، والقلب أرسل قبلاته محفورة مع دقاته.

روحك بفيض مشاعر دكت لي الحصون، فاستسلمت نفسي متغنية بأسمى المعاني، لأجلك دون مشقة نُكست الحبيبة راياتي، فأنتِ الحبيب المحتل بنعومة لأسوار مدينتي، لكن لماذا؟

دهست خيولك بخيلاء رياحين وزهور حبي؟ أحرب الإفناء مكافأة حبك لإحياء قلبي؟ أيقظتني على طعنات حسامك بروحي، شردتني وحيداً لأكابد غدركِ وجروحي، حنانَيك قاسية الطباع المغتالة لحبنا الوليد، رحماكِ أنت، كيف وافقتِ على اختلاف دروبنا؟! يا حبًّا وهبته الروحِ.. حنانيكِ.

عاشقك المهووس «نايف».

* * *

لكنه عدّل الخطاب وكتب آخر، بعد أن رآها واقفة مع «باسل»، زميلها وجاره، تضحك ويبدو عليهما الانسجام الشديد، لم يوقعه كعادته، عندما أشار إليها وناداها لم تُعره اهتمامًا، اقترب منها فأشارت بكل بساطة أن يتركها لشأنها، وعادت لتضحك من جديد مع «باسل»، ابتعد وجلس بالقرب من أسوار المدرسة يقرأ خطابه قبل أن يمزقه.

* * *

غاليتي الفاتنة «فاطمة»..

حبيبتي.. كم أتعذب لفراقك!

حبيبتي.. كان أمل الاقتران بكِ مصدر أماني في الحياة؛ فأنا الجنون الهادئ بغيابك، المجون المضفر بعباءتك، الحب المبتور بجفائك، العشق المنتحر على عتباتك، دونك الوحدة والشقاء، لك الحنين والانتهاء.

أنا النجوم الوضّاءة في سمائك، صوت وألحان غنائك، أنا.. أنتِ يا مفارقة، هل بسهولة هكذا استبدلتِ حبي؟! آه يا هوى،

كلنا فيك عشاق، ولحبٍّ ضائع نتغنى ونشتاق، نتمنى معك دومًا للزمن استباقًا، علنا نجد الحبيب باقيًا! هيا يا عشاق الهوى..

فلتشنقوا المشاعر، ولتحرقوا طبول الغرام، انسفوا عيون بيوت الهوى.. مزقوا الوسائد، وحبيب قلبي الكتوم.. اقتلوه!

حاكموه.. فلقد اختار نفيي لغياهب المجهول.. طلب الابتعاد ببساطة ويصر عليه! طلب الابتعاد وابتعد! آه يا هوى.. وآه ثم آه منك حبيبي.

عاشقك المهووس «نايف».

* * *

عاد إلى منزله يشعر بالخذلان من شتى الأنحاء، يتساءل: أعيبي أنا أم عيب الجبناء؟ لم أطلب إلا أن يكونوا معي صرحاء، فلِمَ التجني والظلم بتبسم البلهاء؟ آه.. كم يتعب القلب من حركات الحقراء!

عاد «نايف» بعد فترة اكتئاب استمرت يومًا ونصف يوم ليمارس عمله؛ فمثله غير متاح له رفاهية الاكتئاب، ذهب علَّه ينسى ما أصابه، كان قد حفظ الدروب والمدقات الجبلية الوعرة بحكم عمله موزعًا للبريد، تلك التي تختصر المسافات بين القرى الجبلية في الجنوب.

فقد اعتاد اختراقها بدراجته متجنبًا الأسلاك الحدودية والألغام المرشوقة المكتوبة بالعربية والعبرية، خلال رحلته اليومية لتوزيع البريد..

اعتاد التطلع إلى الأزهار والشجيرات الصغيرة التي يمر بها، الشجر الباسق وسط سفوح الجبال، أحيانًا يتخيَّل الأسلاك الشائكة تحدثه لتسأله عن أحواله مشفقة عليه وعلى حاله البائس في عالم البشر..

«نايف».. أيها المنسي بين الدروب، على قارعة الطريق تموت وحيداً، تهرب من ظلم عليك مكتوب.. فتحتضنك عناقيد القسوة بخفوت، تلتمس من أشباح غباء الهروب.. فتصيدك بقيود قنابل الصوت.

تعيش وحيداً في هذه الحياة مغلوبًا، فيهديك البشر القهر حبات توت، تتلمس رفقة الأصحاب. . فيشملك الغروب، تحتضن الحنان وتطلبه. . فتضمك شباك العنكبوت، تنادي المجهول ليحن عليك. . فيجيب السكون وتذوب، على الرغم من ذلك. .

تعيش متفائلًا بعصر الصمت، تعلن أنك عن الغرام والعشق أبدًا لن تتوب؛ ففي قصور الخيال الحب أبدًا لن يموت، وبما ستكون به موعوداً.

كان قد اعتاد تجنُّب الطرق التي تقرِّبه من منزل «فاطمة» أو مدرستها؛ فذكراها تثير في نفسه الشجون، يشعر بأن سكين حبها يمزقه إربًا كل يوم، يتخيلها أمامه في أي مكان يذهب إليه، كثيرًا ما خاطبها ليشكوها إليها ويشكو حاله بعدها إليها. .

كان يقول لها: تقابلنا على دهشة وأفراح. . وصارت ذكرى غرامنا جراحًا، تناجينا على عشق بلا أوجاع. . وصار مصيرنا متشابكًا مع الوداع، تهامسنا على صبر يعقبه لقاء. . وصار ما

يجمعنا خيوطًا من ابتلاء، تواعدنا على حب وأمان.. وصار موعدنا فراقًا وعتابًا.

تصافينا على النسيان.. وصار لقاؤنا هجرًا وحرمانًا، انسجمنا على بحيرات أحلام.. فصارت هباء.. وذر أوهام، تقابلنا.. تناجينا.. تهامسنا.. تواعدنا.. تصافينا.. وانسجمنا.. وصارت أحلام مهشمة ما يجمعنا، سرقتنا الحياة لتؤلمنا.. فقد افترقنا.

ظل الحال كما هو حتى أواخر ١٩٧٠؛ حيث تبدلت حينها مشاهداته اليومية، وأدرك وجود مستجدات جديدة؛ حيث صادف في إحدى مأمورياته الصباحية مجموعة من الفلسطينيين يستطلعون تحركات الإسرائيليين على الحدود بنظارات الميدان، ويرسمون خرائط لنقاط المراقبة، فزعوا لرؤيته فاستوقفوه: يا أنت.. قف!!

* * *

«شهرنان» . . من هذه الصامتة؟ خبرينا عنها! إنها صبية مليحة ناديها أو عنها خبرينا . .

«شهرنان» مجلجلة تقول: اسمعوني . . وجه باسم باستحياء وهدوء جاذب للناظر، لكن مَن منا أدرك المختبئ خلف قناع هدوء باد، خلف برودة مشاعر وتحكم صارخ بقسمات وكلمات تُنطق؟ هناك هدوء وصمت قاتل يعم الأرجاء، سكون غلَّف كل الأنحاء، برودة كلمات وأحرف ضائعة، خيال فاقد للوعي بصحبة خفوت يُعمي التفكير، شلل أصاب خلايا مخية توقف إبداع الكتابات.

رومانسية مفقودة وأحاديث تائهة، حب بالزيف والخداع اتصف، حب خَلَّفَ موتًا مريعًا لآمال وأحلام كانت سارحة في الكون بنقاء وصفاء، طفل وليد يَشبُّ ويكبرُ وفي طور شبابه اغتيل بتعَنُّت قلب قاس، خيانة ثقة ليُطرَح أرضًا دون ذنب جناه، تراب أُهيل عليه ليوأد ويدفن ناظراً لقاتله بابتسامة حب وهيام على الرغم ممَّا كان، مُستوعبًا لجميع أحداث قتله، لكن دون إرادة لرد الأذى أو حتى إطلاق صرخات الاعتراض.

وجه تغطي محياه ابتسامة بِشر وترحاب بقاتل يصعب على القلب إعلان كرهه، الإقرار بسلبه ما منحه من سلطات بحجة غرام وهيام زائف، تخنقه أسئلة طائشة هنا وهناك تبحث عن إجابات غير موجودة إلا بجعبة قاتله، جروح نازفة لا تلتئم لتئن الروح منادية ربًّا كريمًا يحفظها من ظلم وضياع لا تدري كنه فاعله.

نعم، ذاك الوجه الباسم بريء القسمات، الرزين الأفعال بحكم الغير، المُعلن عن هدوء يجمل ظاهر القسمات، يفشي عن مراجل أسئلة تغلي بحنايا تتعذب لفراق وهجر وخيانة، باسم هو على الرغم من جراح تقصمه، لكن تفضحه أحيانًا عيون ممتلئة بحزن دفين، قد تشي في بعض الأوقات ابتسامة مقتضبة مبتورة الأركان تُخفي أكثر مما تعلن، تبدو فرحة وبسعادة وبشر تنادي، لكن حقيقتها الأطراف باردة كبرودة تغرق قلبًا بنيران روح غاضبة هائمة في ضياع وفشل محاولة نسيان ما كان، وسط جهل الخوف مما سيكون.

نعم، هذه المُقبلة على الحياة باستماتة، الهادئة، وهذا ما يغمرها ويملأ روحها ويريد إغراقها، قتيلة حية منها كثيرات بهذه

الدنيا لا نشعر بهن، يتنقلون بين بشر أحياء كظلال سوداء تظهر بمرايا الأيام بيضاء، تمر كأشباح هائمة متجولة في فراغ يحوي دنيانا الفانية، فراغ يحوي أخلاقًا وأفعالًا مختبئة تظهر على استحياء، فراغ يحوينا جميعًا موتى وأحياء، دوامة تغرقنا بحياة دائرة، لنحب ونُخدَع أو نَخدَع، نطمع ونرضى لتضيع أحلام وتبنى أخرى.

نعم، هذه الباسمة بريئة الوجه والقسمات، وهذا ما يجول بخاطرها، ما يعتمر بداخلها صباحًا ومساء، ما يؤرق ليلها ويُسَلي وحدتها، يقتُلها أحيانًا لتضيع بوحدة خانقة، لكن دومًا لا ينتشلها منها إلا لجوء لرب قادر ورحيم مالك لأمورنا.

* * *

بداية التغير

فزع الفدائيون لرؤيته فاستوقفوه، وانهالت الأسئلة عليه يستفسرون عنه وعن سكان المنطقة، وأماكن الاختباء لمراقبة الكيان الإسرائيلي، وكيف يمكنهم اجتياز الحدود ليلًا وغيرها الكثير والكثير من الأسئلة. .

لكن «نايف» لم يُعِر هذه الأمور انتباهًا من قبلُ ليستطيع سبر غور أسئلتهم، هو يكره السياسة والخوض فيها، بل يجهل سبب الخلاف بين العرب وإسرائيل. . لكنه يتذكر مقولة والده وهو طفل: «هذه الأسلاك قاتلة، فلا تغامر وتقربها».

شب وقد رسخت بداخله مخاوف الحدود والأسلاك والرصاص، بعد ذلك اعتاده الفدائيون الذين يجوبون الجبال قرب الحدود، ليراقبوا ويسجلوا ويحللوا كل ما يرونه، كان يسأل نفسه: لِمَ يقومون بكل هذا؟! لم يستوعب أبدًا القضية، أو كيفية التضحية والموت في سبيلها.

كل ما يعلمه أن هناك طرقًا أخرى لم يكتشفوها بعدُ. . سلكها هو بعيداً عنهم حتى لا ينغصوا يومه بأسئلة لا تهمه أو تفيده بشيء.

خرج بأحد أيام ربيع عام ١٩٧١ ببريده مستمتعًا بالزهور البرية التي تنبت في الأحراش بريًّا، فوجئ بشخص أكبر عمرًا من الفدائيين الذين اعتاد رؤيتهم؛ فهو يقارب الخمسين، يجلس على العشب متعبًا.

يبدو أنه جلس محاولًا التقاط أنفاسه، وبجواره حقيبة سفر كبيرة، كان منظرة غريبًا وسط الأحراش المقفرة هذه، لم يهتم وقرر استكمال طريقه مدعيًا أنه لم يرَه، ليتوقف فجأة على صوته:

أنت. . يا ساعي البريد.

نظر إليه «نايف» باستغراب، وأجابه:

ماذا تريد؟ ثم ماذا تفعل في هذه المنطقة المقطوعة عن البشر؟!

الغريب:

تعال هنا، متعب ولا أستطيع الوقوف، فهلا لطفًا منك اقتربت أنت وجلست معي قليلًا.

ذهب وجلس جواره متضايقًا وبدآ يتجاذبان أطراف الحديث.

* * *

«شهرنان».. منادية فتاة باسمة، قائلة:

هيا اقتربي.. قُصِّي علينا سر ابتساماتك الزاهية، يا أنتِ.. أشركينا قصة غرامك التي تبدو متفائلة..

تنادي الفتاة وتقول:

حبيبي تعالَ نلتقِ في عالم آخر، ليجمعنا في ميعاد ثابت كل مساء، نجتمع لننسى الدنيا، ننتقل بأحلامنا لعالمنا الساحر، الكائن خلف السحب وخلف حدود سماء الدنيا، المزيّن بنجوم وكواكب لامعة، ومعطر بشهد الملكات وشرقيات العطر.

لنشرب فيه قطرات ندى الحب ونطعم لقيمات غرام الحور العين، نسعد بحياة وحلو لقاء وتخطفنا أحاديث متبادلة، وتغطينا شهوة همسات وبسمات، لنثير جنون الصمت بعذب مناجاتنا، نداعب هدوء الكون الغافل بزخرفة حروف هوانا العامر بزهور يانعة.

حبيبي.. تعالَ انقلني بعباراتك لدنيانا الخالية من هموم الكون الغافل، بكلماتك أدخلني قصيدة عشق صوفية واتركني أتجول بحناياها، لنرقص ونغني ونتهامس همس عيون محبة عاشقة، لتضم يديَّ بأبياتك وتسرقني لدنيا الأفراح.

موجات نبرات صوتك أسرتني في أمان دنيا أشعارك الحانية، احضنّي بهدوء لمسات نغمات أبياتك، وهدهد مسامعي بهمساتك الناعمة.

حبيبي.. يا طهر ملأ حياتي نقاء وصفاء، يا بياض الثلج بحياتي وسموي عن عالمنا الفاني، لنعلُ فوق هموم وأزمات تقتل براءتنا، ولنبتعد عمَّن نظراتهم فارغة وساهون عن جمال خلق الله، سأجمع نجوم الليل لأصنع قنديلًا بلون النرجس يدفئنا، ومن أمواج

البحر غطاء قرنفليًّا ساحراً يخفينا، ومن أهلك وخلانك سأكون سارقة لأجفانك.

اقترب وكُن لي يمًّا يغرقني بين ثناياه في ملذات صفاء الكون، نسبح في بحار نعم الله وننهل من حبه لخلقه ونوزع الفرحة بسعادة، لنطلق دعوة حياة وسعادة في دنيا بشر رغبتهم عيش حياة حقة. حبيبي.. هيا لنأخذ فرصتنا في الحب بنقاء في دنيا تسرقنا من أنفسنا قبل أحبتنا.. هيا حبيبي، تعالَ لنعيش دعوة حياة، فهؤلاء البشر كشفوا غرامنا من ابتسامتي الزاهية.

* * *

«زياد»

أخبره «زياد» – كما ادعى – بأنه تاجر جوَّال فلسطيني يبيع البضائع المهربة الرخيصة، وفتح حقيبته وأخرج منها ساعات وولاعات وأقلامًا، وحاول إقناعه بالشراء منه؛ فهي جيدة الصنع زهيدة الثمن.

لاحظ «نايف» فعلًا جودتها ورخص سعرها. وبما أنه ابن تاجر وحاليًّا يمر بأزمة طاحنة ويبحث عن مخرج، فقد عرض على «زياد» مشاركته على أن يأتي في الغد بثمن البضاعة.

بدأ التاجر في الاستفسار عن أحواله المعيشية؛ فهو لا يريد خسارة بضاعته، وعلى «نايف» أن يعذره؛ فالأمر لم يعد آمنًا هذه الأيام، أخبره «نايف» أنه يقدِّر تصرفاته وشرح له تفاصيل حياته، حتى إنه قصَّ عليه مأساة حبه «فاطمة»، ورغبته زيادة دخله كي يخرج من دائرة الفقر المدقع التي يرسخ في رسن قيدها.

سلمه «زياد» السلع، وتواعدا – بكلمة شرف وعهد رجال – على الالتقاء مجدداً بعد أسبوعين في المكان والوقت ذاتهما،

لصعوبة اجتياز «زياد» الحدود كثيراً؛ لذا كان اللقاء بعد أسبوعين مناسبًا لكليهما، انطلق «نايف» سعيداً بصفقته، ضامنًا أول أرباحه المؤكدة، هلل فرحًا بمكسب جاءه سهلًا مريحًا، وهو جالس يضع ساقًا على ساق، خاصة أنه لم يتكبد أي شيء في الحصول عليه.

ذهب إلى سوق صيدا الكبيرة، باع بضاعته بثمن خيالي لم يكن يتوقعه. جلس في غرفته ليلًا يحسب مكسبه ويفكر فيما سيكسبه مستقبلًا وكم سيجمع خلال أشهر قليلة، كادت سعادته توقف قلبه وهو يتخيل قدرته على الذهاب إلى والد «فاطمة» لطلب يدها مرة أخرى، بالتأكيد سيوافق هذه المرة بعد أن يصير من ذوي الأموال والتجارة، سيكون نداً لها ورأسه برأس أبيها.

لذا، بدأ ينتظر اللقاء التالي بكل سعادة، وكأنما سيأتيه بثروة كالبحر معه، ذهب إلى المكان المتفق عليه قبل موعده بساعة من فرط إثارته وتشوقه للمكسب السريع، جاء رفيق تجارته يحمل حقيبة أكبر فيها أنواع متعددة مما يسهل بيعه بأسعار أعلى بكثير مما يعطيه «زياد» بها، شرح صدر «نايف» بشدة، تحاسبا وانصرف كل لحال سبيله منشرح الصدر بما كسبه..

في أثناء العودة قال «نايف» لنفسه: «سأطلب من (زياد) أن نلتقي مرة كل أسبوع بدلًا من أسبوعين، لم أطلب منه هذا هذه المرة، لا يهم، سأفعلها المرة المقبلة»، نفدت بضاعته سريعًا، وكان الطلب عليها متزايداً بشدة لجودتها العالية، كاد يُجن عندما نفدت بضاعته مبكراً هكذا وما زال هناك وقت كبير قبل موعده التالي، ما أثار أعصابه أكثر أن ألحَّ عليه تجار صيدا في طلب المزيد، حتى إنهم عرضوا عليه أثمانًا أكبر لبضاعته. نقود كثيرة، مكاسب رهيبة سأحققها، أين أنت يا «زياد»؟ هَلُم سريعًا!!

بهذا المعدل سأصير ملك زماني، وسأشتري لـ«فاطمة» الياقوت مهراً، وأقدم لها الزمرد في العرس، آه من الأحلام الممزوجة بالأوهام، وآه مما نتوقعه ونحلم به لحظة اصطدامه بالواقع..

استيقظ على صوت والدته تخبره بأن «فاطمة» قد خُطبَت، ثار عليها مكذِّبًا، تركها وانصرف خارجًا من المنزل، لكنه عاد سريعًا ودخل غرفته وأغلقها على نفسه، فلم يجد في نفسه الرغبة في الذهاب إلى عمله بعد هذا الخبر المشئوم، كتب خطابًا ليرسله لها،

لكن مزَّقه في النهاية؛ فهو لا يجرؤ على مواجهة أبيها إذا علـم بـأمر الخطاب ووجد أنه لم يعد هناك جدوى لذلك.

* * *

«فاطمة».. هل حقًّا وافقت على غيري؟ كنت أظن أن حبـك نهر يرويني فاكتشفت الآن أنه بحَـر أغـرقني!! مـن أنـت؟ لم أعـد أعرفك! من قدر على نيل حبك الـشفاف؟! لم يبـدُ بنظَـري سـيد الهلاكِ جاء ليسرقك مني؟! متى يلـين قلبـك الـسياف فـاطمتي؟! أهناك من سحرك لتُعلني به انهياراً وانحرافًا عن حـبي؟! مـن يـزرع الورود بصحرائكَ؟! وهل جذبكِ بدموع حبه الجزاف مثلي؟!

من نثر الفرح بدفاترك.. ليحتويك قـصة وغلافًـا؟! مـن زرع قصائدك بوديانه.. لينقذ أنهارك من الجَفاف؟! هـل سـيبقى دومًـا عنيداً.. ليزرع زهور حبك بسنواته العجاف؟!

قتيلك «نايف».

* * *

اقتربت امرأة صارخة: «شهرنان»..

تلفَّتي حولك صديقتي وأخبريني.. أترين الدنيا بيضاء بريئة؟ فأنا يُتعب قلبي كم التمثيل وخداع قلوب تحيط بأجوائي، قلوب في يوم كانت تنادي بحب وعشق لأنفاسي، أحقًّا كنتُ مخدوعة أم أنها غصبًا خدعت وخانت أيامي؟!

هويت يومًا قلبًا أهداني جراحات وآلامًا كثيرة تنغص يومي، تؤرق ليلي وتفتتني.. آه منها تنخر في عظامي بردًا صارخًا، أهدوني يومًا سعادة العالم والكون داخل برعم وردة حمراء نضرة تنير أحلامي، لكن ها أنا استيقظت منها لأجده كابوسًا بشع المنظر، أخطبوطًا يسرقني ويرميني في بئر حرمان للحب وغرام العشاق، عنكبوتًا ينسج بشباكه ليخنق روحي وحلو آمالي بالدنيا، قنديل بحر يتابع لدغات تزيد تحسس مشاعرنا من قهر غرام.

خداع متقن وتمثيل بجدارة لأدوار بريئة وكأنك أنت من صرت المجرم، أنت من خُنت وبعت روحك لاستغلال حماقة غيرك بسهولة، لعب بمشاعر لتمضية أوقات سعيدة دون حساب لغيرك

ومشاعره الفيَّاضة، خيانة أمانة روح أودعتك ثقة العالم ووهبتك نفسها حبًّا وكرامة، تمثيل وخداع دون حياء وصراخ عال بأنها لم تقصد جرحكِ بل كانت تنوي قربك، لكن الله أراد بعاداً.

استغلال لحبك بعودة وادعاء براءة حتى بعد خيانة صارخة وغرور وتباه واضح ببعاد، كأنك صرت كتمثال جلمود أو حجر صوان لن تشعري بضربات منهم قاتلة أو حتى تلميح بإشارات وكلمات تقتل في الحال، تدميرك وتركك دمية تلعب بها الدنيا لعبة إخفاء بوقاحة، استغلال وإيهام بأحاسيس سامية دون مراعاة لرب منتقم جبار.

أهُنَّا في لحظة في نظر من ظننا أنهم لنا الدنيا والآخرة؟ هل بسهولة يرون خداعًا وتمثيلًا منهم مجرد جرح بسيط ستطيّبه بضع كلمات واعتذار سخيف بمحادثة شاحبة الأحداث؟

آه يا قلبي من كم التمثيل والخداع بدنيانا! اصبري يا روحي فأنا وإياك مضطرتان إلى التعايش معهم، تحمل إثارة غيرتك وتفاخرهم بوجود آخر وإظهاره أفضل منك، بسبب ضعفك

تستحقين ما نالك من غدر . . وأنت يـا قلـبي تجلـد ومُـر بأحـداث رسموها بإتقان لتظهرك شخصًا مطالبًا بالحب ممن لا يرضى .

بـل والأصـعب أنـي الآن أصـبحت المُطَالِبـة الجريئـة بعنـاد ، أصبحت الساعية لخراب حب آخر أنقى وأشهى بغبـاء ، اصـبر يـا قلبي وسـيُظهر يومًـا ربـي الحـق ويعوضـك هجـر وقـسوة قلـوب أحببتها ، على الرغم من غدر ومحاولة انتقام من دنيا تشوه فيك دون حساب لمشاعر بني إنسان ، كأنـك تتحمـل تبعـات أخطـاء غـيرك ولهم الحق في رد عنف ما مَروا به فيك ، اصبر يا قلـبي وتجلـدي يـا روحي ؛ فهي أيام وستمر وتلاقي ربك فيرحمك من شرِّ بشرٍ أتعبوكِ وظلموكِ .

* * *

ضياع «فاطمة»

خُطبَت «فاطمة» لتاجر ثري من «الفاقورة» وأُعلن عن قرب زفافها؛ فزوجها ثري ولا شيء يعطله عن إتمام زيجته سريعًا.. طُمت آمال «نايف» على صخره الواقع وفقره، بكى بحرقة سنين طوال عاشها حبيس عشقها، تحطم فؤاده كرهًا لها ولأبيها وللنقود وللبشر أجمعين؛ فهم من فرقوه عن حبيبة قلبه، سيندمون.. يومًا ما سيندمون، هكذا قرر بينه وبين نفسه..

قرر استكمال حياته متخطيًا آلامه، ذهب في موعده لمقابلة «زياد» عابسًا محزونًا بعد انتهاء فترة الأسبوعين أخيراً، اللذين مرَّا على «نايف» كأنهما شهران لا أسبوعان، عندما استقصى منه «زياد» عن حاله ولم يبدُ محبطًا هكذا، أخبره بكل ما مر به وضياع «فاطمة»، حب حياته، من بين يديه وخِطبَتِها لآخر ثري..

ما كان من «زياد»، الذي يراه «نايف» صديقه الصدوق، إلا أن نصحه بنسيانها، وأن يركز في عمله حتى يجمع ثروة طائلة تغنيه عن كل شيء وأي شيء، وقتها.. وقتها فقط.. سيندم والد

«فاطمة» على تزويجها لغيره، وسيغيظهم ويكيدهم جميعًا بزواجه ممن هي أعلى منها شأنًا ومكانة وحسبًا ونسبًا وجمالًا أيضًا.

حاول «نايف» استيعاب كلمات صديقه لكي ينفذها على الرغم من عدم اقتناعه بإمكانية نسيان «فاطمة»، ثم أخيراً طلب من «زياد» أن تكون مقابلاتهما كل أسبوع وأن يضاعف البضاعة أيضًا؛ فالسوق مفتوحة على مصراعيها لهما، وحرام أن يضيِّعا من أيديهما هذه الفرصة وهذه الأرباح مؤكدة الحدوث.

تشبث «زياد» برأيه ورفض قائلًا: مستحيل يا «نايف»، إن الأمر في غاية الصعوبة، تعلم أنه على الرغم من أني فلسطيني من عرب ١٩٤٨ فإن حملي لهوية إسرائيلية وإقامتي في إسرائيل يمثلان عائقًا كبيراً أمام عبوري الحدود؛ فهي مغامرة كبيرة قد تكلفني حياتي، وأنا رجل كبير على هذه المجازفات «نايف»، ألا تُدرك المجازفات الكثيرة التي أمر بها لقدومي إليك مرة كل أسبوعين؟ كيف أتغاضى عن كل ذلك لآتي كل أسبوع؟ انسَ الأمر، صدقني هو أمر مستبعد لاستحالته.

كان رد فعل «نايف» باهتًا؛ فهو لم يستوعب معنى فلسطيني ويقيم في إسرائيل. . صُدم، لم يتخيل أن صديقه إسرائيلي، نظر إليه شزرًا للحظات، ملامحه تبدو عربية لكن شيئًا بداخله يحدثه بأنه يكذب في جزئية أنه فلسطيني من عرب ٤٨؛ فهم قبلوا مجبرين العيش بإسرائيل، لكنه يعلم أنهم فعلوا ذلك للحفاظ على الوجود الفلسطيني في الأرض كي لا تطمس هويتهم، لا يوجد منهم من يلمح بأنه إسرائيلي، سرح قليلًا ثم حاول تدارك الأمر؛ فهو لم يجد في قلبه غضاضة لهوية «زياد»، لم يشعر بالنفور منه لذا لم يهتم. . بِمَ سيفيده ذلك؟ بالتأكيد لا يهم. .

طالما أنه يستفيد ويتكسَّب عن طريقه، فلا مانع من تعامله معه والاستمرار في علاقتهما التجارية، فما بينهما مجرد تبادل مصالح فقط دون حديث عن السياسة وشعابها. . هو يجلب بضائع زهيدة الثمن من إسرائيل ليبيعها بثمن أعلى بلبنان، ويتقاسما الربح. . تجارة بلا رأسمال تدر عائداً مجزيًا. ما الضير في ذلك إذًا؟ لا يهم إن كان «زياد» فلسطينيًّا أو إسرائيليًّا.

تعمَّد ألا يرتبك وحاول أن يبدو متماسكًا متفهمًا للموقف، كما حاول أن يكون طبيعيًّا، وليتأكد من أن صديقه «زياد» لن يقاطعه بعد أن أخبره أنه إسرائيلي.. أعاد «نايف» عرضه باللقاء أسبوعيًّا؛ ففي قدرته ترتيب مكان أكثر أمنًا، يمكنهما اللقاء فيه، دون أن يلحظهما أحد؛ فهو يعلم من الدروب المخفية أكثر مما يعلمه حراس الحدود ذاتهم..

* * *

«شهرنان».. يا حورية من السماء.. أخبري حبيبي، أنا في خطر وهو أيضًا، وهذا إنذار مسبق علَّه يسامحني ويعود، من عاشقة اللعب الخطر بين متاهات كلمات تحوي مصائد للضعاف أناديه، أوصلي إليه صوتي لأخبره، حبيبي تعالَ واستمع.. الحياة بلا هدف من دونك.. أنا حبيبتك العابرة لأوقاتك لأوزع ابتساماتك بهدوء، لأمنحك سعادة كون وردي أزرعه بقلبك وحياتك، عُد لحياتي، أعتذر إليك يا مالك عمري، بعودتك سأقيم حفلة بين النجوم.

سأرتدي فستانًا أنيقًا، وبطلَّة كحلٍ مرسوم، ولمسة أحمر شفاه، وقليل من ضربات فرشاة بالحمرة على خديَّ، ونفحة عطر ناعم العبير، أظهر لحبيبي الغضوب وأهدئ الأجواء بأقاصيص وحديث معهود، وعندما يعلن استسلامه أمام أسلحتي الموجهة، وعليها سلاحي الساحق الماحق، نظرات العيون الهائمة المصوبة لعيون وقلب حبيبي حلالي زوجي الغالي، عندها.. سيرفع راياته البيضاء مقدمًا اعتذاره عمَّا بدر مني أنا من خطأ؛ فحبيبي مسامح نقي القلب والسريرة يسامحني ويمنحني العفو وصكوك الغفران لجمال وصفاء روحه. حبيبي الأثير.. مالك العمر والروح.. مليكي ومالك قلبي الوحيد..

معك سأطير بين شباك الهوى في السماء، يا حوريات البحار سحري حبيبي كائنًا خفيًّا لنهرب من نظرات الحياة، يا شبكة منسوجة من روحي وخيالي.. خذيه لنسبح بين النجوم، ازرعينا أمواجًا بين البحار، أعيدينا لزمن لا يعيش فيه سوانا أنا ومالك قلبي وضي عينيَّ. «شهرنان» ل تستطيعين جمعي أنا والحبيب؟

* * *

لقاء دهاء

كان «نايف» يُسحب مُغيبًا عن حجم المأساة إلى بئر الخيانة، فهل ضيَّعته قسوة الحياة، أم جهله بما هو فيه، أم تناسيه ما كان وما يكون؟ فضلَّل اجتياز الطريق الأسهل توهمًا في النجاة؟! هل سيتخبط كثيراً حتى يصل إلى الطريق الصحيح؟ هل سيصل في الأساس إلى الطريق الصحيح؟ هل يريد النجاة، أم سيجد من يأخذ بيده ليقف على طريقه الصحيح؟ فمن الغباء الارتكان بالثقة لقلوب وعقول تعوَّدت على التلون لإشباع غرورها بالتفوق والذكاء.

كمٌّ هائل من الزيف والتمثيل والخداع وقع «نايف» في براثنه، تتكسر الأوردة كزجاج مغشوش على أبواب قلوب أجادت هذا الغش كله، والمأساة أنها تتفاخر كأنما قد أجادت علوم الدين والدنيا، أقبلت على حدود السماء متباهية، كأنما هي آلهة للحب أو العشق لا سبيل إلى الفرار منها، ثقة خالية من أي مشاعر تسير بتفاخر وهي صماء جوفاء، وصل بـ«نايف» حد الغباء إلى أن صدَّق الزيف والكذب ونبذ الحق والصفاء.

صحيح بكل منا شر العالم، وخير وصفاء الملائكة، لكن من ينتصر؟ ومن يخسر؟ ما الذي نظهره للعالم؟ وما الذي نخفيه؟ من يحكمنا وسط غيمات تناقضنا؟ هذا هو امتحان «نايف»، فهل ينجح؟!

على الرغم من غرابة كون الطريق القويم مليئًا بعثرات الماضي والحاضر، لكن الله موجود يساعد من يدعو، يرحم بمغفرة وعفو من تاه وسط شرور تعيش بتجاويف الإنسان، فهل، يا الله، من مغيث ينجد «نايف» من شر ذاهب إليه بقدمه؟ الأمل فيك ربي، أغثنا فقد ضللنا الطريق، أغثنا فها نحن نُغرق أنفسنا بأيدينا، أغثنا يا الله بنورك العظيم.

لم يضيِّع «نايف» إلا رغبةٌ دفينةٌ في عيش الحياة بحب وبراءة، عشق دون خسارة روحه بظروف يتخبط فيها بضعف، يتمنى ثقة متبادلة وفكراً واضحًا واحتواء وتضامنًا يقربه من حب العمر.

* * *

اعتذر «زياد» بسبب تشديد المراقبة الإسرائيلية على الحدود، وخوفه أن ينكشف أمره، خاصة بعد العمليات الفدائية المتزايدة على الحدود، إذا قُبض عليه سيعاملونه كجاسوس إسرائيلي، خاصة مع هويته الإسرائيلية، وسيمر وقت طويل حتى يُثبت أنه مجرد تاجر بسيط يمرر بضاعته بهذه الطريقة، وقد لا يقتنعون بأنه فلسطيني من عرب ٤٨، لكنه وعد «نايف» بالتفكير في الأمر، علَّه يجد طريقة ما بمساعدة «نايف» وخبرته عن الحدود وتلك المنطقة.

ابتلع «نايف» الطُعم؛ لذا انبرى مهاجمًا الفدائيين، وسَبَّ الفلسطينيين، هؤلاء الأوغاد سيدمرون مشروعي التجاري، كيف هذا؟ لا يمكنني السماح بذلك!! هل بعد أن تَذَوقت طعم المال والثروة الرائعين يَضيع مني ذلك كله هكذا هباء؟! سأحارب الدنيا كلها فلا يُمكنني التنازل عن هذا كله..

ترك «زياد» على وعد بالتفكير في حل أو طريقة تساعدهما في تمرير المزيد من البضاعة المهربة؛ فـ«نايف» وُلد وتربَّى وسط هذه الأحراش، هو أدرى بشعابها ولا يوجد من يحفظها مثله؛ لذا أخذ

على عاتقه محاولة إيجاد حلٍّ لهذه المعضلة التي قد تتسبب في إيقاف نشاطه التجاري بكل ما يدره عليه من أرباح خيالية.

مرت الأيام تتلوها الأيام وهو يفكر في طريقة، ما زاد حنقه وحيرته هو غياب «زياد» ستة أسابيع كاملة، اختفى هو وبضاعته وثروته المستقبلية.

ظل يراقب الحدود علَّه يأتي، لكن دون فائدة.

توترت أعصابه، وبعد أن كان كما ناموسة صغيرة، تطير دون أن يلحظها أحد إلا إذا أحدثت صوتًا، تحوَّل كما زينة باب ثقيلة الظل كلما مر قليل من الهواء بها صدعت الجميع بأصوات غير منظمة، كان يثور ويعلو صوته لأتفه الأسباب، مما زاد من مشاكله مع والدته وجيرانه وزملاء عمله الذين لم يعتادوا منه الاهتمام بشيء أو حتى سماع صوته، لم يدرِ أحد لِمَ هو هائج دائمًا هذه الأيام.

كان يحدث نفسه كثيرًا قائلًا:

هل أعود مجدداً لذلك الفقر المدقع؟

لا يمكنني السماح بذلك! لكن ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟

الذَنْبُ ذَنب هؤلاء الفدائيين!!

هم سبب غياب «زياد» وبضاعته..

آه لو يختفون من هنا..

لِمَ لا تقبض عليهم الحكومة لنعيش كما نريد؟

هؤلاء الأوغاد أضاعوا أموالي وأرباحي..

ظل يتابع الحدود وقلبه يرتجف رعبًا من أن يُكشف، على الرغم من أنه يخفي دراجته المتهالكة بين الأعشاب الخضراء كي لا يلحظها الفدائيون.

هكذا أخبره «زياد» في أحد لقاءاتهما السابقة:

«نايف . . أخفِ دراجتك، لا تتركها هكذا، أتريدهم أن يلقوا القبض علينا ببساطة ويسوقونا كما الماشية؟» .

«زياد» . . هل ستأتي؟ ومتى؟ تأخرت عليَّ كثيراً صديقي .

آه لو أستطيع عبور تلك الحدود واجتياز تلك الأسلاك لأذهب إليك علِّي أرى ما أصابك ولِمَ تغيبت عني هذه الفترة كلها!! لكن كيف وأنا لا أعلم حتى أين يقيم؟

كان دائم الذهاب إلى مكان لقائهما المعتاد فاقداً للأمل، يتمشى هنا وهناك . . وإذا فجأة، لمح من بعيد شبحاً آتيًا باتجاهه ويقترب بخفَّة، ارتعب كثيراً وهمَّ بالفرار . .

لكن سمع اسمه ينادي به الشبح بصوت مألوف . .

وقف وتَسَمَّع للصوت مرة ثانية وهو يعيد النداء عليه، تهللت أساريره لملاحظته، وأخيراً انفرجت شفتاه عن ابتسامة، لتعود إليه روحه من جديد . .

ها هو قد عاد «زياد» من جديد . .

آه صديقي . . أين كنت؟!

انتظرتك لفترة طويلة، لِمَ اختفيت هكذا؟

ظننتك لن تأتي مجدداً . .

فقدت الأمل وشعرت بالموت لغيابك!!

أخبره «زياد» أنه يعاني كثيراً في تمرير بضاعته، ويحتاج إلى دفع الكثير من الرشاوى والعمولات ليمرره الجنود من خلف الحدود، خاصة مع العمليات التخريبية المتزايدة، وتصعيد الجنود الإسرائيليين على الحدود لاحتياطات الأمن.

نقاط المراقبة «نايف» زادت كثيراً ولم أعد أستطيع المرور بسهولة.

كيف تتحرك أنت يا «نايف» بسهولة هنا بالجنوب؟

ألا تُعاني مثلما نفعل نحن؟!

كيف تعبر أنت من هذه الحدود؟ ألا تخاف؟!

أسئلة متنوعة وكثيرة. . الغريب أن «نايف» أجابها بتلقائية دون أن يستوقفه ضميره أو حتى حب الاستطلاع والفضول.

زاد في التفاصيل فوصف لـ«زياد» أساليب معيشة الفدائيين وأماكن وجودهم وتجمعاتهم، حتى الممرات ومدقات الجبال التي يسلكها هو وغيره، رسمها «نايف» لزياد بدقة على الورق بما يسهل الوصول إليها واستغلالها ليمر ببضائعه كيفما شاء. .

حدَّد له مواقع الحفر التي يتخذها الفدائيون مراكز مراقبة نهارًا، لينطلقوا ليلًا أواخر الأشهر العربية المظلمة، مستغلين هذا الظلام الدامس أو ضوء الفجر الضعيف لقصِّ الأسلاك والتسلل إلى إسرائيل.

قال «نايف» لـ«زياد» إنه يعلمُ أشياء كثيرة. . هل أخبرك كيفية استقطاب الأشبال وتجنيدهم؟ أتعلم؟ سأخبرك أيضًا عن تدريبهم عسكريًّا على استخدام المدافع الرشاشة والقنابل في معسكرات مغلقة بالبقاع.

لديَّ الكثير والكثير من المعلومات سأخبرك بها جميعًا، لكـن لا تنقطع عـني مـرة ثانيـة هكـذا أنـت وبـضاعتك. . وبـدأ الـسقوط الناعم. .

* * *

«شهرنان». . اتركيني أنا لأخبرهم قصة حـبي لأسـأل حبـيبي عمَّا فعله ويفعله بحيـاتي ودربـي. . ففـي ثـالوث الغـرام لا شـيء يضاهي قرب حبيب، وحضن عاشق هيمان، وتغـزل مغـرم بكـل وجد وحنان، وأنا أشتاق إليك حبيبي، على الرغم من علمي عدم جدوى اللقاء، فلا القرب يشفيني من وحدتي، ولا البعاد ينجـيني منك حبيبي.

آه منك يا وجعي أنت، ويا صبر. . صبر قلبي على من فـارق وأرسل صبره على صبري يصبِّرني، كأن صَـبْرَ الـسنين صـار دواء يُصبِّر من صَبره صَـبر الـصابرين، آه يـا دمـوع مـن العـين سـالت وجفـون علـى العزيـز ناحـت، متـى الخـلاص مـن حبيـب يـرى العذاب؟ حب رجل يحمل الواقـع علـى عاتقيـه ممزوجًـا بتفاصـيل حبك. . فلتخبرني حبيبي. .

لِمَ أسكنتك بجوار الروح وشاركتك هواها؟!

لِمَ تأخذ مني أكثر مما تعطيني؟!

لِمَ أضعف أمامك وتستكين كل أجزائي خانعة لهواك؟!

لِمَ سامحتك؟ وهل سامحتني؟

لِمَ أحببتك بشدة؟ وهل بالمقابل أحببتني؟

هل ستعود لملكتي؟

آه حبيبي . . الحب ضعف والقلب في الأصل ضعيف، والجسد منهك من خرف وتخريف، الحب ألم والروح في الأساس متألمة من قسوة الحبيب وظلمه، الحب جبروت وأنا إنسان ضعيف فكيف لي بمجابهة بحر أمواجه صقيع وثلج كثيف؟ تعبة وضائعة أنا ولا مفر، حتى صراخي سرقه المطر، ذهب مع الريح دون عتب.

لم يعد أمامي إلا أن أعجن شرايين قلبي بالتجبُّر، وبالقسوة أرسم صوري، لكن عدني ألا أراك؛ فبرؤيتك تسقط هالة عنفي

وأعود وردة برية مزروعة أمام أبواب مملكتك، فمثلك أنت خُلق لتسقط أمامه المرأة دون إذلال وتصير في مجرتك ملكة الرايات.

لكن كيف.. وحبك دومًا فعل ماضٍ وحياة بلا أمل أو مستقبل؟!

* * *

سقوط مُرتَب

تشجَّع «زياد» عندما وجد «نايف» يقدم خدماته ويتحدث باستفاضة وسأله عن المصادر التي جمع منها معلوماته، ليُجيبه «نايف» بفخر:

أعرفها من بعض شباب الجنوب ممن انضموا إلى صفوفهم، إنهم يحفِّزونهم بشعارات الجهاد.

فرح «زياد» كثيراً حتى أظهرت ملامح وجهه سعادة غامرة لم يستطِع كبتها داخله؛ لذا وعلى سبيل المكافأة، بكل هدوء، أخرج حافظة نقوده، أخرج مبلغًا ومد يده إلى «نايف» به قائلًا:

هاك «نايف».. خذ، هذا ألف دولار مكافأة لك نظير ما أسديتني من معلومات قيِّمة.

كان مبلغ ألف دولار في السبعينات مبلغًا، عن حق، رهيبًا.

ألف دولار؟ ألف دولار؟.. ظل «نايف» يكررها داخل تجاويف عقله المريض.. لكن لِمَ ألف دولار «زياد»؟!

زياد: «نايف» حبيبي.. سأنقل المعلومات التي حصلت عليها منك إلى الإسرائيليين، وقتها سيثقون بي، ويسمحون بمروري بسهولة، وقتها أستطيع أن ألتقيكَ أكثر من مرة أسبوعيًّا، أبشر صديقي سنستطيع العمل بلا توقف بعد الآن.

استغرب «نايف» هذه الكلمات كلها..

فأعاد سؤاله: لِمَ هذا المبلغ؟

أجابه «زياد»: لأجل ما أخبرتني به، سأبيعه نظير مبلغ ضخم من الإسرائيليين «نايف»، ألا تُدرك قيمة ما أعلمتني به؟!

«نايف»: لا أفهم ماذا تعني! أتريدني أن أكون جاسوسًا لإسرائيل؟!

صمت «زياد» لبرهة ثم أجابهُ بكل خُبث:

ما منحته لك سأسترده ثانية، في إسرائيل يشترون هذه المعلومات بأعلى الأسعار صديقي، كما أن الأمر ليس تجسسًا؛ فنحن لن نؤذي أحدًا، هم فقط سيحمون أنفسهم بما سنخبرهم

إياه، ويتقون شر الأعمال التخريبية التي يتولاها من يطلقون على أنفسهم فدائيين.

ألا تحب إسرائيل «نايف»؟

«نايف»: لم أفكر بالأمر، ما زلت لا أفهم!!

زاده «زياد»:

ـ أنا عربي مثلك، في الماضي كنت أكره إسرائيل، تربيت على هذا، كبرت الآن وفهمت أن كُرهَ العرب لإسرائيل ناتج من أنهم ينقادون وراء حكامهم المستبدين، الذين يُسيِّرون شعوبهم حسبما تكون مصالحهم هم، مستغلين السياسة والدين للوصول إلى أهدافهم في الحفاظ على رقودهم على كراسي الحكم، يريدون ضمان خلودهم كحكام.

هل قرأت في أي مذهب ديني آية أو ذكراً لتحريم التعامل مع بني إسرائيل؟! لتعلم «نايف» أن إسرائيل هي دولة ديمقراطية، الشعب فيها يحكم نفسه، ويملك بيده قراره ومصيره، يمكنه تغيير

أي شيء حتى رؤسائه، عكسنا نحن العرب؛ لـذا اخـترت الإقامـة بين ظهرانيهم وليس بين إخوتي من العرب.

«نايف»: . . . . . !!

استمر «زياد» في حديثه، بكل دهاء وحرفية، مـستخدمًا طبقـة صوت ملساء كفحيح ثُعبان:

«نايف». . إسرائيل فيها حريـة التعـبير والاعـتراض، يمكنـك فعل ما تحب وقتما تشاء، وأن تقـوم بكـل مـا تريـد وقتمـا تريـد، يمكنك الاعتراض حتى على الحكومة وأدائها دون أن يطالـك منهـا أي أذى، أو تطـارَد أنـت وكـل مـن يعرفـك أو عرفـك يومًـا، أخبرني. . أتوجد دولة عربية يحدث فيها هـذا؟! بالإضـافة إلى أنـه يمكنك أن تُحب من تشاء، لا يمكن لأحد رفضك لأنـك أقـل منـه ماديًّا. . ما دام هناك حب تُلغى الحدود كلها.

أتعلم؟ أنا موظف ببلدية «نهارية» القريبة من الحدود. أشـتري هذه البضاعة من «عكا» وأبيعك إياها في لبنان لزيادة دخلي، هنـاك أنا حر في أن أسعى إلى زيادة دخلي وأن أعيش ميـسوراً لا ينقـصني

شيء، هذا حقي في الحياة، تكفله لي الدولة، ألا تريد أنت أن تعيش ميسوراً؟

أخيراً نطق «نايف» قائلًا: نعم أريد، بالطبع أريد ذلك.

* * *

ها قد عُدنا من جديد لنسمع حكايات «شهرنان» لنقول: يا أنت.. من رواياتك هل من مزيد؟! معها نعود لاشتهاء احتساء فنجان كبير من الشاي والقهوة كمزيج عجيب، خليط يمثل وسيلة تشتيت قلب عن أحبته ساكني عالم الخيال المهيب، مكونًا تنبيهًا للعقل ليخرج من عالم الأعاجيب، هذا العالم الشهي البهي المليء بقصص العشاق، هَلِمُ لتُخبركم «شهرنان» بإحداها.

تقول «شهرنان»: سأخبركم عن رجل عشق العشق، وسطر به أحلى وأغلى درر الكلمات، أهداها لمن ملكت منه الروح كملكة أمازونية ليحوِّلها بنبضاته إلى نهر حب، حالمة القسمات، كتب وكتب حتى باتت هي الأخرى تكتب فيه أقوى الأحاسيس وتنشده أصفى الأبيات، لتغني له يا نهر الحب..

يا من سوّاه الله بقدر وبيده جملَ بحق من خلقك، حن على من هواك وبقلبه غرامك قد سُطر، نقشك بالحفر الغائر والبارز في الروح، ومن بُعدك وتجاهُلك بات مجروحًا مذبوحًا، يا ملك الإحساس.. يا أمير الكلمات.. يا نبض العمر وسلطان الألحان.. عمري بك مرتبط كأساس البنيان.

يا رجل يجلس على عرش القلب وتوَّج نفسه سلطان العشاق، مالك كل إحساس وحرف ينبض داخلي، يا من لأجلي تجبَّر وطرد مَن سواه وتمركز في بؤرة قلبي وعقلي وملك الروح ليطير بها بملكوت خيال الإلهام.

يا من نقلني من بين أحجار فردوس جنة أحلامي، وأمسك بيدي وسار على أرض زحل الكوكب، من كان لي ماء وهواء لأتنفس وأعيش، من أنعشني بغنائه وكلماته، من روَّح عني وزيَّن بي قلبه زهور نرجس وقرنفل، مَن هيامه كفنان صوفي الأشعار، من سواه المولى عز وجل لينسيني الآهة وأية أحزان؟

من يسقيني الفرح كؤوس عسل بليلي لأرى نجوم سمائي مضيئة ببهاء، من يطعمني هناء شهد الملكات كل صباح، من

يخرجني من أوهامي وظنوني برحلات وجولات بكواكب هذا العالم السيارة، لنصول بين زخرفة خيال الأشياء بكل مباح ومتاح وحتى ما هو باستحالة ظهور العنقاء.

من يدخلني عوالم إنس وجان بمهارة، ليسبح داخل أفكاري وينقذني بقبلات حياة بكل وداعة وسماحة، من يضحك فينير القلب بضيائه، ويثير ويداعب مخيلتي، فتنهار وسط كتابات محتارة في وصفه بدقة ومهارة فنانة ملتاعة، يا أنتَ. أتيت عالمي لتنتشلني من عالم أرواح أرضية وتصعد بي إلى سماء العلا وخيال الأرواح الهيمانة.

يا من ضحكاته، وحتى بسماته، تنثر لاستغرابي لروعة هذا العالم المحتاج بشره لإنعاش وإعادة إحياء، لأستغرب حتى أنفاسي وكيف لا أعطي الله القدر الكافي من الشكر بعبادة خالصة النية بصفاء بال وهدوء، وأستبشر بمدى جمال وكثرة نعم الله علينا؟ لكن يحزنني جفائي مع ذاتي؛ لأني أجحد نعم الله بغباء متمثل في حزني وكآبة أُجبر حالي عليها لضياع أو افتقاد شيء ما.

آه يا هذا . . بسماتك طفل يلعب وسط البشر ليعيدهم أحياء، يا هذا . . أعشق وجودك بحياتي وأراه نعمة وهبها لي الخالق، أرسلها بوقت وميعاد . . كم كنت أشتاق للقائك، ولهذا أشكر ربي، آه يا ربي . .

أهواك يا مالك الملكوت ومنظم شئونه، أعشقك يا مالك كل الأكوان ومالك الروح، نصيبي وقدري بيديك نعمة وهدية يا مالك رزقي وحتى خيري وشري، يا منجي من أسوأ أفعالي ومن شر اعتمر كياني ومنقذي من هوائية تتملك خصالي، يا الله . . امنحني القوة والقدرة لأوفيك حق عبادتك يا رحيم بكل الضعفاء .

* * *

اتفاق

«زياد»: إذًا هيا نعمل بجد وإخلاص، لأستطيع أن آتي إليك يوميًّا..

«نايف»: ماذا يمكنني أن أفعل لنحقق هذا؟!

«زياد»: يُمكنكَ الكثير.. عليك أن تعمل لتكسب الكثير وترد إهانة «عدنان» و«فاطمة»، تنتَقِمُ من كل من استصغر شأنك أو استهان بك..

ألا تريد الانتقام من تلك الحكومة التي ترمي إليك القليل وهم متخمة جيوبهم حد الفيضان؟!

استمر «زياد» ينفث سمه الزعاف ويثير في قلب «نايف» أشجانه وآلامه القديمة، مستغلًّا إياها لصالحه، كي يعمل لحسابه بجمع المعلومات عن الفدائيين وأنشطتهم داخل الجنوب اللبناني..

أثقلت الأوهام والآمال الزائفة رأس «نايف»، فبدأ في الخضوع.. لِمَ لا؟ أليس من حقه تأمين حياته هو أيضًا والاغتناء؟ الكل يسعى إلى تحقيق طموحاته وآماله، فلمَ ليس هو أيضًا؟!

أذعن «نايف» وأعلن الخضوع لـ«زياد».

تهللت أسارير «زياد» طربًا، لكن باغته «نايف» بشرط..

«نايف»: «زياد».. أريد الحصول على الكثير نظير كل ما سَيُطلَبُ مني من معلومات وخدمات؛ فهذا أمر خطر، وإذا كُشف أمري سيتم شنقي، أريد مقابلًا كافيًا ويزيد على هذه المخاطرة..

«زياد»: لا تقلق «نايف».. سأطلب تخصيص راتب شهري ألفي ليرة لكل منا.. ما رأيك؟

«نايف»: يا الله!! ألفا ليرة (بُهِت وفتح فاه كأبله)..

«زياد» مجيبًا: نعم.. نعم ألفا ليرة..

لكـن . . عليـك معرفـة كـل شـيء، وجمـع كـل مـا تـستطيع الحصول عليه من دون إثارة الريبة أو الشك . .

احـصل علـى خططهـم، مواعيـدهم الدقيقـة، أعـدادهم ومعداتهم، احصل على كل التفاصيل «نايف»!!

* * *

آه منك «نايف» . . من التراب وإلى التراب ستعود؛ فهل هنـاك من يـستحق ضـياع جنـة الله لأجلـه، مـن تـضيع بـسببه وتـسحق العهـود؟! المـوت لا يـستأذن في القـدوم! فهـل حقًّـا مـستعد أنـت للتخلي عن الدنيا ومتاعها والفوز بالجنة؟! ها هي تصرفاتك توحي بأنك تقول لا، ما أكثر الأشياء التي قد تُفكر بها بلحظتك الحاسمة عند النهاية؟! هل ستظل تفكر في المال والانتقام؟!

في زمـن تلـوَّث فيـه البـشر ببقايـا الـذنوب الجـسام، بخبـث الثعابين، طمع الغيلان وبقايا الآثام، تلوث بسوء الأفعال وما تجنيه أياديهم علـى مـر الأيـام، يتـساقط البـشر كمـا يتـساقط الجـراد في صحراء البيداء، يتساقط من نصفهم بالأحبـة بمـبررات واهيـة مـع

الأخلاء، يتساقط الأصدقاء ونعيش مدعين أنها سنة الحياة بغباء، يتساقط الإخوان ونتوهَّم صمودنا في مواجهة ما بنا من خواء.

يتساقط الكثير ويمضون قُدمًا بجروح روح معلنة الوفاة بخفاء، تضيع النفوس والأرواح في الدنيا وتتيه بغربة وتتغرب مع الأهواء، في عالم البشر نتوه مع أفعال وتصريف القدر، تضيع الجمل لنسقط في مستنقعات الحياة، نسقط ولا نحاول المحاربة لنعيش برضا وبركة الله، لنعلو فوق كل الزلل بهذه الحياة.. هكذا «نايف» اختار السقوط دون أي شعور بالخجل.

سقط «نايف» وهو عاقل لم يفعل، اختار الطريق الأسهل والأسرع لنيل ما يريد من الدنيا، تلك الساحرة التي تأسرنا بحكايات دوَّارة.. اعتقد «نايف» أنه ينظر ويتعامل مع الدنيا باستحقار، لكن الأزمة أنه لم يدرك أنها تعلم أنه يُقيمها كمنارة منشودة، أنه يذوب كقطعة ثلج بالكأس فتُضيف لحياته المزيد من المرارة.. عامل «نايف» الدنيا كعشيقة وحبيبة، لكن للأسف لم يستوعب أنها غدارة، تدور وتدير البشر فيها بوجوه مقنعة، غدر بالبعض مثله، والبعض يعيش بكل شجاعة وجسارة.

أضاع «نايف» عمره الآتي، لم يفهم أن الدُنيا ذاهبة ومعها البشر، وسيأتي غيره ليعمرها، هذا أمر واقع ليس بالجديد أو حتى نبوءة وبشارة، لا باقٍ إلا وجه الله، لكن ولحسرة القلب لم يُدرك «نايف» هذا، لم يستعد لحساب الله وعذاب جحيمه.

* * *

يا أنت.. قصِّي علينا، لِمَ تبدو ملامحك حزينة كئيبة؟ ما قصتك؟ ولِمَ هكذا تبدو حالتك بائسة وخطيرة؟! أنا، يا سيدتي، وضعي ميئوس منه؛ فحبيبي هذا هو قاتل لحياتي.. نعم أنت يا سبب ردة قلبي دومًا في غرامك، فهيا اختَر سبيل فراقي وأثبت عليه قرارًا، وسأحطم قلبي وأفتته لأريحك من شر قربي لمجالك، سأخفي أشيائي وعواطف تتجاوز حدود سماء وأرض حياتك..

سأبعدها عن سحب أسماعك، سأقتل حبي وعشقي الرافض لغيابك وأواريه تراب بركان يثور ليحرقه في اليوم آلاف المرات، ليلتهمه جمر نيران مشتعلة ليل نهار دون رحمة أو حتى هوادة علَّه يموت ويرتاح.

حبيبي . . عودتي إليك ردة أفكار ومشاعر، كفر بالصدق وبراءة إحساس الشاعر، كره للذات؛ فوجودك بحياتي ضعف وعذاب أرتضيه بطيب خاطر، وكأني أصدرت فرمانًا عثمانيًّا بحرماني من فرص حياة أفضل، حب أنقى يختار صفائي دواء لحياته، رفض لإبداع وإلهام يسبح بين نجمات سحاب فردوس العدنان.

عودتي إليك هي عقاب روماني بمصارعة أسود عاداتك وأشيائك الخانقة لحياتي وأشيائي، مرسوم من بابا الفاتيكان بجلد الذات صباحًا ومساءً تكفيرًا عن عدم حبي لذاتي، فتوى من شيخ الأزهر بالقتل لكفر أحلامي وطموحاتي، هي ذبح للروح بسيف سوماري وكأنا في حرب تتار كل فريق ينوي فناء للآخر.

أخبرني يا وليدي وطفلي الأكبر، يا حبيب العمر، لِمَ تختار لحبيبتك العيش بين براثن كفر وإلحاد بفطرة كون وجمال طبيعة؟ لِمَ ترميها في دائرة عقاب الذات؟ لِمَ حبك قاسي التعبير، مصمت أجوف، داخله خارج يغرق كدائرة الوحل؟!

لِمَ عصيانك يتجلى لإخفاء حب وعشق يعبق قلبينا وتحاول إنكاره؟ اسمعني مليًّا . . أنت مذنب في حق أرواح اجتمعت ببوتقة الحب، فلِمَ هواك قاتل سفاح لمشاعرك قبل أحاسيسي وعمري يا عمري أنتَ؟!

أتعلم؟ أصبحت موقنة الآن أن حبك فعل ماضٍ مبني على خيبة حالي، على ضحكة ضاعت وسط تيه حالي معكَ، وسط غيبوبة عنف عشقية تكوي قلبينا.

يا حبي . . أخبرني، إذا كنت تنوي فراقًا وتصر عليه مستقبل درب وحياة، فلِمَ جئت ودخلت حياتي؟ لِمَ بقيت لتشاكس أحلامي؟ لِمَ قلتَ أريد الدق على بابك؟ لِمَ كانت أمنيتك تخطي عتبة بابي؟

* * *

الفصل الثالث - أسلاك شائكة في إسرائيل

حاصر «زياد»، ضابط المخابرات الماكر، «نايف»، ولعب على أوتار فقره وعزف على أحلامه في الثراء بدهاء، أجاد، بجدارة، استغلال ضعف «نايف» أمام المال، كما أجاد استخدام ضعف إيمانه بعروبته وقوميته، حاك ونسج، بفن، خيوط خيانة «نايف» بإتقان، ضمه قبل انتهاء اللقاء لقائمة خونة أنفسهم قبل بلادهم وعروبتهم.. تحوَّل «نايف» في لحظات من مجرد شخص لا همَّ له في الحياة إلا أن يأكل ويشرب ويُحب ويتزوج إلى جاسوس نشط لإسرائيل.

«عائشة»: كيف لم يتعقل ووقع في براثن الخيانة أمي؟

«حبيبة»: حبيبتي.. الكثيرون يملكون قلوبًا ضعيفة، مغيبة ضمائرهم، «عائشة».. عندما يتفق الأَنْذَالُ معًا فلا تضطربي وتقلقي، بل اهدئي.. اسحبي كرسيك في الحياة، تجهزي لمشاهدة

مسرحية مبهرة، أبطالها مهرجو الدنيا، بتشجيع مُدَّعي الشرف والأمانة..

قوامها تفاخر بأخلاق مواربة، استغلال لجهل المحيطين وادعاء الأصل والإنسانية، حب الخير للغير، بذل جميع السُبل لخدمة الضعفاء، تمثيل الفناء من أجل الآخرين وإسعادهم..

لا تغضبي عندما ترين نجمهم يصعد إلى عنان السماء، فما طار طير وارتفع بزيف إلا كما طار وقع، دومًا يكون سقوط هؤلاء مدويًا وفاضحًا، هذا لمن وعى واذكر، هيا أكملي حبيبتي..

«عائشة»: حسنًا..

استمرت المقابلات بين «زياد» و«نايف» عدة أسابيع، حتى تأكد «زياد» من ولاء «نايف» التام لهم، وانغماسه التام في وحل الخيانة، وبدأت المرحلة التالية..

على «نايف» التدريب على أحدث الأجهزة ليكون جاسوسًا على مستوى لائق بعمله؛ لذا بدأ «زياد» في رسم صورة وردية عن

علاقة العمل المقبلة، وعن أهمية تحسين مستواه وتدريبه، ليزيد من إمكانية الحصول على أموال أكثر . .

كانت الأموال هي مفتاح «نايف» الأصيل، الوتر الذي يلعب عليه «زياد» للوصول إلى موافقة «نايف» على ما يريده ويطلبه منه .

طلب من «نايف» أن يعبر الحدود معه، وذلك للتدرب داخل إسرائيل بأمان، دون مخاطر اكتشاف أمره هنا بالجنوب اللبناني، على أحدث الأجهزة والمعدات .

«نايف» : لا . . لا لا لا لا .

هل جُننت؟ أنا أدخل إسرائيل بقدمي؟ ! أتريد أن يقبض الأمن عليَّ؟ ! قد يراني أحد أفراد المقاومة فيقتلونني في مكاني، دون محاولة الاستفسار حتى عمَّا أفعل . . لا لا مستحيل . . لن أفعل . .

«زياد» : اهدأ «نايف»، سأفهمك، الأمر مهم لمستقبلك ! !

«نايف»: مستحيل.. أتريد أن أُخاطر بحياتي ومستقبلي هذا؟ لن يكون هناك مستقبل بذهابي لعدو مُعلن.. (قالها بكل ذهول وكأنما هو في عالم الأموات فعليًّا)..

تجمَّد «نايف» من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه، شعْر رأسه وقف فزعًا، شعر أن شعيرات جسده كاملة قد انتصبت مذهولة مما يتخيل حدوثه، ترنح في مكانه ولم يستطع الوقوف على قدميه، لم يتمالك نفسه فسقط على الأرض جالسًا؛ فالموضوع أكبر من قدرته على الاستيعاب.

لكن «زياد» ضابط لا يمكن أن يُستهان به.. لم يترك «نايف» يفر بعد أن استطاع تجنيده وهو أصغر جاسوس في الجنوب بهذه السهولة؛ لذا استمر في الطرق على الحديد وهو ساخن، فقد أراد شل حركته وإرادته وتفكيره كليًّا..

«زياد»: «نايف».. ستحصل على المزيد من الليرات عندما تتدرب؛ فوقتها ستنتقل إلى فئة أعلى وستكون أحد رجالنا، سنكون دومًا بجوارك، لن يُصيبكَ أي سوء، وبافتراض تعرضك لخطر؛ سننقذكَ سريعًا، يمكنك وقتها أن تعيش في إسرائيل كبطل،

فنحن لا نترك رجالنا يتعرضون للمخاطر، أو تختار أية دولة تريدها لاستكمال حياتك فيها منعَّمًا.

وكان الأمر أهون مما تخيل «زياد»، تم الأمر بعد أن وعد «نايف» بألا يفضحوه مستقبلًا أيًّا ما كان السبب، بإعلان اسمه ضمن كشوف عملائهم، وأن يزيدوا راتبه بما يناسب تلك المخاطر، وبالتأكيد وافقه «زياد»، فما أسهل هذه الوعود مقابل ما سيحصلون عليه من معلومات.

أما «نايف» فكان يرى أنه يمنح الإسرائيليين معلومات تافهة ليست ذات بال، مقابل مبالغ ضخمة، تحوله من حالة بؤس العيش إلى ملك في زمن قصير..

لم يدرك أنه يُخاطر بكشف عمليات تُقضُّ مضجع الإسرائيليين، خاصة في الشمال، وأنه يعرِّض أبناء جلدته لمخاطر القتل والتعذيب بسجون عامرة بسجناء كل ما فعلوه مطالبتهم بحريتهم وحرية بلادهم.

اقتنع أن عليه التدريب أكثر ليكون أكثر أمنًا، وأخيرًا وافق على الذهاب مع «زياد» ليضمن عدم كشف أمره يومًا ما؛ فالتدريب أصبح ضرورة للحفاظ على أمنه وحياته ومستقبلة المزهر معهم.

لذلك طلب إجازة، متحججًا بحاجته للسفر لشراء بضاعة جديدة والتعرف على ما هو جديد وحديث في هذا المجال، انطلق بدراجته إلى نقطة الالتقاء في الجنوب، اختبأ مستغلًّا الظلام بين الأعشاب..

كان كل ما فيه يرتجف؛ فقد كان توتره يصعد بروحه إلى عنان السماء، ويهبط بقلبه إلى جوف الأرض، ظل يحدِّث نفسه عمَّا يشعر به: أشعر بفراغ يصل إلى حدود النجوم وضياء السماء، بوحدة تتغلغل في نفسي البشرية بجفاء، بحنين قاتل مسيطر على روحي لتذهب هباء.

أختنق.. بخيال أسود يتحكم باللاوعي ليعوي كذئب دون حياء، بأشباح العمر تتخفَّى بليونة قط، تنبش قبور الأخلاء، بأنفاس تسرح هنا وهناك تتجول كيف تشاء، أتعذب.. بخبث

العالم يحيط الكون ليخنق كل صفاء، بسهاد قاتل يسحب ليلي الجميل نحو فناء، بعذاب يخنق أيامي بقسوة قاتل يهوى حسناء.

* * *

«شهرنان».. أنجدي قلبي الغريق، عاشقة أنا لرجل فريد، هو حبيب وصديق قريب، لكني معه دومًا عنيدة، فأخبريني ماذا أقول.. أوجدي لي الحل لحبه في العلن.

لكن كيف وأنا من له دومًا أقول ربما كنت رجلًا من خيال، أو ربما رجلًا في السماء يطير، أو قد تكون ملء السمع والفؤاد وتتجول داخل الأساطير؟!

أو قد أظن أحيانًا أنك من وادٍ خطير، قد تكون فارسًا من دنيا الغيب والأعاجيب، لكنك في الحقيقة، وعندي أنا، ما زلت رجلًا تمشي وتسير دون أن تثير الأعاصير، رجلًا قد تكون مغامراً، لكنك ما زلت بشراً تأكل وتشرب وتثير الجنون بشرٍّ مستطير، قد تحن لعالم حنون بشوش.. لكنك معبّق بقسوة وظلم اكتسبتهما من صداقة السنين، حوّلتك الحياة إلى مسخ ساخط على دنيا البشر،

شخص قاسٍ على النساء دون سائر البشر، فهل أنت رجل من خيال، أم أظن بجنوني أنك مثل سائر البشر؟

سيدي.. لا تعش الخيال، ولا تستهن بقدرتي على استيعاب الرجال، سأتركك فقط بين سحابات خيالك لأنني مستمتعة بمشاهدة شطحات أوهامك؛ فسكونك درب من خيال وفتنة.

عشقك بات سبيلًا لمجاذيب معاتيه الغرام، مغامر أنتَ، طائر سابح بين النجوم أنت، مغرور ومتكبر، فلتلمس الأرض يا هذا، عِش الواقع والحياة، فلست بأعجوبة ولا أسطورة من خيال، أنت رجل من طين وقليل من ماء مهين، انتظر هنا.. قر هنا.. واسكن هنا.. انتظر مني الحنان والكلام.

سيدي.. احذر شرًّا يتطاير من عينيَّ؛ فجنوني أصل متأصِّل ونار، أنا أنثى من غيرة، حبي متشعِّب يعشقه كل مار، لكنني.. لكننا.. اخترنا حبًّا.. عشقًا كالمنار، فأين كل وعد قُلته؟ هل أنت بار؟! كالوالد ووليده كنت معي، وفجأة تحولت لخيال غبار، كنت يومًا ملاكًا حارسًا وفجأة تحولت لشيطان ومارد يسقيني المرار.

هل تعلم؟ حتى عشقك لعنادي هو عشق مبرر؛ لأنه يزيد بـك الكبرياء، يجعلك تجوب عوالمي لتثير بقلبي الإباء، لتتفـاخر برُتـب تخدع في الأنثى الذكاء، لكن.. هيهات.. هيهات.. فأنـا لـست في عالمك كسائر النساء.

* * *

رعب وحقيقة

ما أشد رعب «نايف»! تخيل أن يشاهده أحد أفراد المقاومة، فهذا هو وقتهم الأثير للانطلاق لتنفيذ عملياتهم ضد الكيان الإسرائيلي، حاول تخيل الفرق بين مشاعره الآن وهو يسعى إلى الثروة والحياة ضاربًا عُرض الحائط بأهله ووطنه، ومشاعر ذلك المُضحي بحياته في سبيل تحرير بلاده، المُجاهد في سبيل قضيته..

التمس الأعذار لنفسه: هم السبب؛ فقد تركوني لأعيش الفقر الشديد، كيف تخيلت الحكومة أن أُعيل أسرتي بهذه الليرات الزهيدة؟! حتى «فاطمة»، حبي الجميل، تركتني من أجل آخَر أكثر ثراءً لتعيش حياة رغيدة، أنا أيضًا عليَّ السعي لأعيش حياتي براحة وسعادة، سأعوِّض كل ما حُرمت منه، لن يمنعني أي شخص أيًّا مَن كان مِن الوصول إلى هدفي ونيل حقي المسلوب في السعادة والثراء..

أكمل حديثه مع نفسه قائلًا:

آه من شيطاني يناوشني ويتحايل لأتحول لكائن آخر لم أكنه يومًا، بكل الأساليب يلاعبني، وحجج تبريرات تبدو بعقلي منطقية يطالبني أن أكون شخصًا مغايراً يثيرني بأوصافه، يأتي دائمًا ليقنعني في أوقات انكساري.

آه من وسوساته تجعلني أصرخ طالبًا التحول لآخر، أخبره بأني أريد نفضَ عباءتي البالية من الأخلاق؛ فهي لم تعد مجدية، لا أريدها أن تغطيني، ونزعَ ما يطرز روحي من طيبة ووقوف مع غيري؛ فهم دومًا سر آلامي..

محو كل ما تربيت عليه من خير، خاصة ذلك المسمى اعتذاراً عند الإساءة للغير لحدوث سوء دون قصد مني.. سأنزع تلك الصفات الغريبة المريعة التي تحيط عباءتي من حب لغيري، الدعاء للغير حتى مَن يؤذونني، تمنِّي الرزق الواسع للجميع ممن حولي وكأني صرت ملاكًا، لا أريد الألوان الزاهية من غباء مشاعر جارفة لأناس ليسوا من عالمي.

أريد محو تقديري للغير ومراعاة ما يمرون به على حساب نفسي، سأفتت شريط كسر خاطري لأجل آخرين مهملين

يسحقونني بإهمال واستخفاف، يقولـون إن زينـة التفـاؤل وتوقـع الخير والظن الحسن من أفضل زينات المرء، لكني سـألقيها أرضًـا، لا أريدها، سأحرقها كلها وأجعلها رمادًا وأنثرهـا هبـاء في الجـو، وهذه النقوش.. ما هذا؟ حيـاء وخجـل وصـبر.. صـفات باليـة ضائعة وسط أخـلاق وتربيـة مفقـودة لا تـستخدم ومـصيرها يومًـا الفناء، سـأحيك ملابـس جديـدة مزركـشة زاهيـة تلمـع، تعمـي الأعين بكل مجون، ملابس من تلك المنتشرة لأثـير العـالم وأحولـه لمخبـول مفتـون، سـأتحوَّل لإنـسان عـادي يـدور معهـم في دوائـر مسكونة بخداع وغش مأفون..

سأصيِّر نفـسي وروحـي ثعلبًـا أو ذئبًـا أو حتـى حيـة أكولـة، تخطف قلوبًا وعقولًا بخبث وحيلة، وتعيش على حـساب الكـل.. سأتحول لمارد جبار يبدو قطًّا لطيفًـا، سـأمارس شـرور الـدنيا مـن خلف زجاج البلّور المزين بنقوش الورد.

إن هؤلاء الفدائيين يعيشون الوهم، سـيُطردون مـن هنـا كمـا طُردوا من الأردن، هي مسألة أيـام، لـن يـستطيعوا التغلـب علـى الإسرائيليين؛ فهم الأقوى والأكثر أموالًا وسـلاحًا، ألا يـرون أنـه

مقابل كل إسرائيلي يُصاب، يُقتل آلاف الفلسطينيين؟! يا لهم من أغبياء، ألا يقدِّرون عدد مَن منهم مُلقى في السجون؟

بالتأكيد أنا على صواب، أعرف من أين تؤكل الكتف، لن أكون كتفًا يأكلها شخص آخر بعد الآن، سأكون أنا الآكل لكل الأكتاف..

«حبيبة»: ابنتي.. شيطانُه فعلًا بارع استطاع إقناعه، لم يدرك إشارات الله التي تنير حياتنا وتنجينا من هذه الوساوس، أحيانًا يرسل شخصًا لنراه يثبت أمام ناظرنا وعقولنا أن أفعالًا كفعل «نايف» هي نتيجة أوهام خيال مريض، تعب من زيف أناس كثيرين حوله أو ضعف نتيجة ظروف عاشها، لكنه لم يحاول تخطي محنته وتجاوزها؛ فالخير ما زال موجودًا والحب أيضًا يستعمر قلوبًا ومالكَ، عندما يفيق من غيبوبته سيكون قد فات أوان العودة..

«عائشة»: هل انتهيت من درس وعظك أمي؟ لا تقاطعيني بنصائحك الذهبية هذه أرجوكِ، كل هذا لتخبريني أني ضعيفة في مواجهة ظروفي! هو لم يتحول إلى قعيد في سن صغيرة، لم يشاهد

حربًا أبطالها إخوانه، لم يقتل أبناءُ عمومته أخاه وجاره، أمي. . لا أحب هذه النصائح البالية. .

«حبيبة»: درس وعظ؟! أكملي قصتك. . لا أريد الشجار معكِ في منتصف الليل، هيا أكملي أو دعيني لأنام. .

حسنًا سأُكمل: ظلَّ «نايف» ينتظر ظهور «زياد» لأكثر من ساعة ونصف الساعة. . مرت عليه كأنما هي عام، كل ثانية تُمثل مسلسل رعب يقتله خوفًا وفزعًا، لكن فجأة قطع حبل أفكاره صوت خشخشة ووقع أقدام آتية، ثم رأى ومضات متقطعة خافتة يصاحبها صوت خفيض يطالبه بأن يتبعه في هدوء، ليبدأ مرحلة جديدة من خيانته. .

رعبه أثَّر على تقدمه؛ فقد كان يتعثر كثيراً، لينبهه ذاك الشبح بالتزام الهدوء كي لا يُفضَح أمرهما، ما زاد من تلك الغصة العالقة بحلقه، شعر بطعم العلقم بفمه، جو التخفي أثار غثيانه ليتمنى العودة إلى منزله، فلم يعد يرغب بالثروة، فقط يريد العودة كما كان.

نظر للأمام، رأى حائطًا من أسلاك شائكة كان يفصله عن بئر خيانته القادمة، ويبعده عن بحيرة حياته الماضية ببراءة، على الرغم من عفونة ما قاساه فيها، فقط أسلاك شائكة تفصل ما بين ما مضى وما هو آتٍ من خيانة يُدرك أبعادها. .

نوع من التعفن لن يُجدي معه أي صابون بهذا العالم أو حتى عطور باهظة الثمن سيحصل عليها بنقود ملوثة بدماء رفاق وجيران يتسبب في هدر دمائهم غدراً.

وصل إلى نقطة الالتقاء، استقبله شخصان آخران بالزي العسكري الإسرائيلي، ما زاد رجفة جسده، لم يتحدث أي منهما وأشار إليه أحدهما أن يركب السيارة، لتنطلق بهم بعد أن جلس بالخلف وسط أربعة جنود ذوي نظرات حادة متفحصة أرعبته وأربكته أكثر، حتى شعر بالعرق يتصبب منه ويغطي جسده كاملًا.

ما أقلقه أكثر هو تحدثهم معًا بالعبرية، ليشعر كما لو أنهم يضحكون عليه، هل يهزأون منه لأنه باع وطنه؟! حتى «زياد» كان

يُقهقه معهم غير مُبالٍ به، لم يحدثه بكلمة واحدة، لم يكلف نفسه عناء السؤال عن حاله، لم ينظر إليه حتى.

ظل يُشاهد الطريق على ضوء السيارة، ولاحظ أن «زياد» يُشير إلى النقاط الأمنية عندما يصلون إلى إحداها، فتُفتح لهم الطرق دون الحاجة لتبادل أي كلمة.

على الرغم من انتشار تلك النقاط بكثرة على الطريق، فإن سيارتهم كانت تمر سريعًا دون تفتيش، أما باقي المارة فكانت تُفتش سياراتهم بطريقة مستفزة، وتخرج محتوياتها وتلقى بعيداً كما لو كانوا يُخرجون أمعاء دجاجة ستُطهى، ما جعله يستغرب كثيراً كيف كان «زياد» يشكو من صعوبة اجتيازه الحدود وها هو يشير فقط فتُفتح له جميع البوابات ليمر بسلاسة.

* * *

يا «شهرنان».. احكي المزيد من قصص العباد، غني عن أحبة وعشاق، عمَّن يسبحون في بحور الحب ويكون الغرق سبيلهم

للنجاة من شر الفراق، أسمعينا . . أفهمينا . . علَّنا نفيق يومًا ومن الحب وأفعاله نتخذ سبل النجاة .

تبدأ «شهرنان» الحكاية دون مقدمات أو نهاية، تفتح باب الرواية وتخبرنا بأن حكاية اليوم عن زهرة، هي مجرد زهرة عادية، هكذا ترى نفسها، كانت زهرة أخرى من ضمن زهرات كُثر ملقاة على جانب، مهملة ووحيدة بهذا العالم، تشكو وتئن لأفرعها، مكتفية من هذي الدنيا بنظرة حب من شمس الصبح وضحكة مغازلة من قمر الليل ومعاكسة من إحدى النجمات .

لكن جاء هو محتلًّا غادراً ليستولي على بتلاتها ويحتل بصمت مسام وريقاتها، اشتم عطر ربيعها بمزاج فنان هاوٍ، سحب نعومة الوريقات باحترافية بائعِ ماس، وقطعها جزيئاتٍ كتاجر ذهب متمرس، وعند بزوغ فجر جديد ألقاها . . رمى أشلاء ما بقي منها خارج حياته .

تركها تنوح ذاهلة لنسيم الصبح لِمَ جاء وكلف خاطره عناء الوصول إلى قلب مغلق بمتاريس قسوة وظلم حياة؟ ! ولِمَ تحمل شوكاتها وعالجها إذا كان ينوي منذ البدء فراراً آخرَ أكبر من دائرة

نظراتها؟ لِمَ ترك زهرته المختارة بعناية وفق شروط ومعايير ترضي من حوله وجاء لهذه المهمَلة منذ سنين؟! ألا يكفيه ظلم الناس والدنيا لوريقاتها؟! لِمَ جاء إذا كانت خيباته هي دومًا هداياه لإشراقة يومها؟ لِمَ أَطفأ بيديه وهج نعومتها وبراءة تسكن ريعان شبابها؟!

تركها لتردد أقاويل معبرة عن عاشقة مهجورة، تبدي في نصائح ملتاعة لباقي الزهرات، لتلخص حكايتها في بضع كلمات تحكيها بأن أسوأ شيء كونك لا شيء لمن هو لك كل شيء.. آه يا قلبي يا وطن مذبوح بيد القدر، مجروح ضائعة منه الروح قتل، بيد قاتله إذْن وتصريح مفتوح، لكل أفعاله معه مبرر، خطوط الرفض له تجاوزها مسموح ومباح، يا وطن الأمان، عليك مني السلام، فقد حانت لحظة الختام بوداع المحبوب.

* * *

حيفا

أخيراً توقفت السيارة، دخل «زياد» المبنى وأشار أحد الجنود إلى «نايف» أن يصعد معهم للأعلى، لم يجد بُدًّا، نظر نظرة سريعة لما حوله فلم يستطع رؤية شيء؛ نظراً لرعبه وعدم قدرته على التمييز لعدم تركيزه، كانت العمارة فخمة وفاخرة جدًّا لم يرَ مثيلًا لها من قبل.. صعد معهم إلى إحدى الشقق، دخل دون أن ينبس بكلمة.. وأخيراً نطق «زياد» قائلًا: «وصلنا.. ستبقى هنا (نايف) حتى أعود إليك».. ثم تركه ومضى..

«نايف».. أهلًا بك في حيفا.

تفاجأ بهذا الصوت الرنان، نظر إلى مصدره ليجد أن قائلته فتاة حسناء تبدو في العشرين من عمرها، ذات شعر أحمر وعينين زرقاوين، ووجه كما لو أنه مصنوع من لبن حليب، ثُبِّتَ على جسد شهي شديد الإغراء، ترتدي ملابس تُظهر أكثر مما تخفي، تُثير شهوة جبل الدروز لا هو فحسب..

صحبته لحجرته وسألته: هل تريد شيئًا «نايف»؟ (قالتها بدلال زائد فقتلت فيه الوعي، ليثبت غير قادر على النطق لهول شعوره تجاهها)، تركته وخرجت وهي تتصنع البراءة على الرغم من إدراكها ما أحدثته داخله من زلازل وبراكين، لكن بمجرد اختلائه بنفسه، شعر بحجم المأساة فبكى كطفل فقد أمه وسط ضجيج سوق المدينة، شعر أن أفكاره مشتتة لا يدري ماذا فعل وما هو مقدم عليه وما عواقبه!!

ما أرعبه بعد ذلك أكثر وأثار أسوأ مخاوفه أن «زياد» تركه لأكثر من أسبوع دون زيارة، فقط تركه مع فريق من أطباء نفسانيين يسألون ويفتشون وسط أحلامه، كلماته، وحتى خلجاته، لمعرفة نقاط ضعفه، وكيفية السيطرة التامة عليه.

ليحدث نفسه كالعادة: ماذا يجري «نايف»؟!

هل أتى عليك اليوم الذي أصبحت فيه خائنًا وببحر الغدر تنهار؟! هل يتعبك فراق حبيبك وما أحدثه من دمار؟ هل آلمك لذا تلعب بالنار؟! هل أبكاك كثيرًا فأزلت عن قلبك غبار حبه ووطنك؟! هل تملؤك أفعاله تلك الخالية من الحق والعارية؟!

هل حبيبك يراك كشبح ويبغى منك الابتعاد أو الانتحار؟! هل أمَلُكَ بحب كان عابراً ماراً بيومك؟! هل أماتك يوم ذهب واختفى بشتاء حار؟! هل تحيا الآن بدعوات تحميك لرب جبار؟! هل لديك تساؤلات أم انتهى مشوارك والحوار؟!

هل ستدور في فلكها بلا فرار؟! لمَ تستمر في غيك «نايف»؟ أتوجد فرصة سانحة للهرب، أم أنَك غرست روحك وذاتك بمستنقع خيانتك هذه؟!

لكن، كان يخلص في النهاية إلى أنه بريء مجني عليه والآخرين هم من ظلموه وجرُّوه لهذا الفعل الجلل.

بعد أسبوع، بدأ مرحلة التدريب على كيفية التجسس وتجميع الأخبار والتقاطها دون إثارة الريبة والشبهات، علَّموه كيفية تمييز أنواع الأسلحة، كيفية الاختلاط وسط المحيطين به ووسط التجمعات الفلسطينية ليستطيع إتمام مهمته بنجاح، أجاد كل هذا سريعًا، فيبدو أن خلف بشاعة خلقته عقلًا يعمل عندما يريد.

درَّبوه على كيفية رصد تحركات تلك الفرق «المخرِّبة»، كما سموها، وكيف يلاطفهم ويرتبط معهم بصداقات وعلاقات علَّموه كيف ينشئها وكيف يستغلها جيداً وكيف يستدرج من يريده للأحاديث الوطنية، بحيث تتم إثارة حماسهم فيُخرجون ما بداخلهم من أسرار، دون أن يدركوا أنه يستدرجهم لهذه الأحاديث.

تحوَّل إلى شخص آخر واثق بذاته حد الغرور، تحول بدلًا من شحاذ إلى ملك بفضل تزكيتهم لأوهامه، تجوَّلوا معه في شوارع إسرائيل بسيارة فاخرة ذات ستائر سوداء كأحد مسئولي الدولة، ليقارن بين بلد الديمقراطية والفن والجمال والحرية وبين ما رآه وما يسمع عنه ببلاده العربية.

أقنعوه بأنه سبيل نجاتهم من هؤلاء المتوحشين، بأن ما يأتيهم به هو صمام أمان يضمن استمرار واحة الأمن والديمقراطية هذه.

أشبعوه متعة ودلال، منحوه ما يعوِّض حرمانه من المال والنساء، وذلك عندما نجح في استخدام اللاسلكي في الإرسال لأول مرة.

كما وعدته «ألين»، حمراء الشعر التي تُقيم معه في المنزل، أنها ستقضي ليلتها معه مكافأة على نجاحه، وعلى الرغم من علمه أنها عميلة للموساد فإنه لم يبالِ؛ فما همهُ سوى أنه سيقضي الليلة في أحضان أنثى جميلة لأول مرة، ليتذوق لهيب الحب، ويطعم من بركان عشق ودلال؟ أجادت دورها كاملًا، حتى إنها وعدته أن تكون محظيته خلال زياراته لإسرائيل.

أحضر إليه «زياد» المزيد من الفتيات ليبيت معهن، كان يُدرك أنهن من داعرات الموساد، لكنه عشق إحساس الرجل المغوار، حاول أن يعوض حرمان سنين، أن ينتقم من ترك «فاطمة» ومن قبلها ابنة عمه، كان يرى في عشيقاته «فاطمة» و«زليخة»؛ لذا كان يغني لهن:

حبيبتي.. عشقي.. ارتعبي..

اعزفي أبهى ألحانك وأعذبها بأحضاني..

ضجي، قولي تعالَ..

اصرخي بشراييني . .

بهمس ناديني وبسكون شغفك مزقيني . .

عَنِّفي قلبي، العني . .

بالجنون اتهميني . .

أثبتي وجودك، وبنسيم عبيرك ضميني .

لا تتحجري كتمثال، وكشلال اغمريني . .

اضربي، بعثري أجزائي وبمجون أحبيني . .

أحتاج لأعاصير ناثرة لبعيد شوقي وحنيني . .

حرب وغارات شعواء عليَّ هيا بقسوة شني . .

لا أهوى حياءك . . تمردي وبشهد هواكِ غطيني .

باحث عن حب وعشق يأسرني ويفوق أنيني . .

عاشق متجول في دروب الدنيا . . وهدوؤك يقتلني . .

لذا حبيبتي . .

اشهقي واصرخي مداوية لأنيني . .

اقتربي بعشق كاسر لخداع أماني .

بعشقكِ اقتليني .

* * *

«شهرنان» . . أكملي السرد الليلة عن أحبة تفرقوا، وعن أحبة معذبين لا الحب القديم بقلوبهم مات ولا هناك متسع لحب جديد، احكي وزيدي؛ فهذا الحب منه الكثير في الحياة، أخبرينا عن إحدى فتياتك واروي عمَّا يعتمر قلبها، فلعلنا نجد لها الحل اليقين .

هلت فتاة بإشراقة ضي فجر لاح، وعلى الرغم من الحزن عيناها لامعتان بضياء شمس الصباح، جلست بيننا ونظرت إلى من بهت لرؤيتها ثم تهللت أساريره بحب وانشراح، وسألها : هل

سؤالي نال منكِ الاهتمام يا فاتنة؟ وهل سأجد الإجابة مفرحة كهذا المساء؟

عبست مطرقة في الأرض ثم أجابت، وبانبساط في الكلام: يا أنت، سوف أجيبك من أنت لروحي وحياتي، أنت شخص يبهجني، يسعد قلبي، يشاكس أحاسيسي بفرح وهناء، يسند روحي من استمرار سقوط وسط كآبة وحزن غير متناهيين.

أنت شبح لحبيب كنت أترجاه، رجل تمنيت وجوده في حياتي في أحد الأيام، حب بخيال يملؤه شقاوة وبراءة الأطفال، سكر وعسل يجمل حياتي، ملح يضبط طعم حياتي المر ويزينها، أنت زمان جميل ضاع من زمني لا يناسبه ولا يمكنني دمجه بحياتي لفروق التوقيت وسوء الأحوال، ضحكة صافية ملأتني يوم دخلت حياتي لتلونها بسمة نور تمثل شمسًا تزيل آهاتي، أشعة ضياء لقمر وهاج أزال ظلمة أوجاعي.

أنت وأنت.. ما زال الحديث عنك يفيض كبحر هائج مليء بالخيرات ينتظر إشارة فيض خيراته على شواطئ الحب لتنال حورياته نصيبًا مقدرًا من اللؤلؤ والمرجان، لكن للأسف عابك

شيء واحد أنك لم تُنسِني حبيبي على الرغم مِمَّا به وعلى الرغم من أنك هذا الإنسان.

فهو حب وغرام وعشق أنتظره، هو عمر آتٍ وأحلام وآمال عريضة أتمناها، آه منك حبيبي، على الرغم من رحيل الثقة وعلى الرغم من ضياع الأمل وعلى الرغم من افتقاد خيالات تجمع فيما بيننا، وعلى الرغم من... وعلى الرغم من... فأنا ما زلت أنثاك المحبة العاشقة الذائبة في بحر هواك، المنتظرة لعودتك لتطفئ نيران فقد وحرمان بغياب متعمد من عينيك.

حبيبي.. أحلُم بدفء يديك، حنان همساتك وكلمات غرام من شفتيك، ما زلت هنا أنتظر عودة قاتل روحي ليُنجيني من ظلمات بئر وحدة أغرق فيها بعد فراق دنياه وسماه، أنتظر من أخذ بثأر حسادي مني دون مودة أو حتى هوادة في قتلي، لم يسألني عن عذري أو يفسر لي ذنبي، ومن دون رحمة نفَّذ عملية قتلي بهدوءٍ ونعومةِ حيَّة ملساء رقطاء.

حبيبي.. أصبحت أنت الغول المتغلغل في قلبي وروحي، مَن حوَّل الثلج في وجوده لدفء يعمق ليالي وأيامي، حبيبي الغالي..

آه من أوهام وظنون بها عشنا، واقع معاش أردناه وتخيلنا سبل الحصول عليه، حبيبي . . نعشق ونحب ولكن . . مَن هنا ليساعدنا؟ يا بشر . . أتدرون من هو؟! أين يسكن؟! متى ذهب؟! وهل سيعود؟!

* * *

عـودة خـائن

غاب «نايف» خمسة وعشرين يومًا، عـاد في نـوفمبر ١٩٧١ إلى لبنان، ليُخبره أحد جيرانه أن «فاطمة» زُفت ورحلت مع زوجهـا، غضب وثار: ما دخلي بالأمر؟ لمَ تُخبرني؟ استشاط غـضبًا حتـى إنه كاد يضرب جاره، الـذي لاذ بـالفرار خوفًـا مـن نوبـة غـضب «نايف».

ليكتشف أنه مـا زال مُـدلهًا في حبهـا، لم تنـسه حمـراء الـشعر الإسرائيلية ولا أخواتها الفاتنات مشاعره كما اعتقد، شعر بـسكين غائر في أعماق قلبه، ما زاد سخطه على «فاطمة» ووالـدها وبـلاده أيضًا، وقرر الانتقام..

قـاتلتي الحبيبـة.. كنـتُ أرى الحُـبَّ ضَـعْفًا!! العـشْقَ مَذَلّـةً وَهَوانًا.. كُنْتُ أهْرَبُ منْهما وَمنْك!! فَوَقَعْـتُ فـي أحَـضانك.. وَشرَاكهما خلْسَة!! اخترت التمـرد يومًـا.. ولـوأد حـنين فـؤادي إليك قررت وهبه للمساكين وعابري السبيل، ويا ويلـي.. حـبي لك.. غطى البرية.. ولا يـزال! بقلـبي وروحـي الكـثير لـك.. والكثير.

أنت لي حب وفناء . . بلا انتهاء، إلى مَن أستجير منكِ وأنا أخشى عليكِ عقاب ربي العظيم؟!

لكن ها هي الأيام مرَّت ونسي الفكرة؛ فعمله الجديد كان أهم؛ فهو ما يمنحه الأمان بالأموال الكثيرة المُغدَقة عليه، نظير خدماته الجليلة لإسرائيل.

قبل سفره، كان قد أخبر أهله أنه ذاهب لبيروت ليقضي عطلة لمدة شهر، يتقصى الأخبار حول البضائع هناك ومدى إمكانية إقناع أحد التجار ليشاركه في افتتاح محل خاص ببضاعته هنا بالجنوب.

سهَّل عليه هذا الأمر إخبارهم عند عودته بأنه قد كسب بعض المال خلال إجازته في بيروت، لكنه لم يستطع إقناع أي تاجر بمشاركته؛ نظراً لتخوفهم من المتاجرة في منطقة الجنوب بسبب المناوشات الدائرة دومًا بينهم وبين الإسرائيليين وتلك الغارات المستمرة عليهم.

ما أسعد والدته وإخوته أكثر أنه أخبرهم أنه ينوي إعادة بناء المنزل، ريثما يجد عروسًا تناسبه، عاد مرة أخرى إلى عمله في مكتب البريد..

شعر بغرابة كبيرة.. كيف يعود إلى هذه الدراجة المتهالكة، بعد أن رأى كل المُتع المتاحة في إسرائيل متعًا يمكنه الحصول عليها؟ ليحدث نفسه: يمكنني أن أشتري سيارة فاخرة الآن.. نعم.. سأشتري سيارة أتنقل بها، ولكن.. «زياد» أخبرني بتوخي الحذر، سيتساءل الجميع كيف جمعت كل هذه الأموال في شهر واحد..

حسنًا، سأكتفي بدراجة جديدة، لكنه فكر.. يا الله.. ربما أثار هذا ريبة رجال المقاومة، لا يهم، لنترك هذا الأمر الآن، المهم بحر الأموال الذي لن ينضب ماؤه أبدًا..

بدأ يجمع الأخبار والأسرار، تعلَّم كيف يحفظها جيدًا، وفي الليل يستغل نوم الجميع ليبدأ في بث رسائله السرية في ميعاده المحدد:

«صادقت فدائيًّا فلسطينيًّا، دعاني إلى زيارته في مخيم عين الحلوة، للعلم. . المخيم به مركز عسكري للتدريب على استخدام السلاح والقنابل وصنعها. وفيه ثلاثون شابًّا مدربًا، يحصلون على مكافآت ومواد غذائية وملبوسات، ويجهزون لعملية ضد مستعمرة جانيتا. . سأخبركم بميعاد العملية حالما أحصل عليه، هناك أيضًا عشرة آخرون ما زالوا تحت التدريب والتأهيل».

هكذا توالت رسائله إلى جهاز المخابرات الإسرائيلي (الموساد) تباعًا، وبغزارة؛ فقد كان نشطًا في جمع كل ما يمكنه الحصول عليه، كي يضمن تدفق الأموال بغزارة إليه وعدم نضوبها أبدًا.

يرسل رسائله ويذهب إلى النوم دون شعور بالذنب، لا يقلقه ضميره أبدًا، ثم يستيقظ في اليوم التالي ويخرج صباحًا حاملًا حقيبة البريد، كأنما هو شخص عادي لم يفعل شيئًا خاطئًا، ولم يتسبب في قتل الكثيرين، يربط حقيبة بريده في مقود دراجته المتهالكة، يمر بها بين القرى الحدودية بأمان؛ فالدراجة هي جواز مروره الآمن ليستطيع التقاط الأخبار والتلصص دون إثارة ريبة أي شخص،

يراقــب تحركــات الفــدائيين وأعــدادهم وعِــددهم، إمكانــاتهم واستعداداتهم، ليبلغها مساءً لقادته من رجال الموساد.

أرقه الوحيد كان سيطرة «فاطمة» على أحلامه، حتى إنه حَلُمَ بها ليالي كثيرة، تأتيه باكية معتذرة تُسمعه أصفى وأنقى كلمات الحب، تطلب منه العودة إليها فستهرب معه ويتزوجان:

«نايف».. حبيبي..

أخبرني.. ما سبيل نسيانك؟

وكيف أعتادُ غيابك؟ أتدري؟

لأغفو تشاكس قلبي بكفيك..

تلمس شعري فتحتويني وأحتويك..

أحلامي الوردية تفيق بهمساتك..

وبهمس عطرك أهيم بواحاتك..

يا حبي . .

من نار حنقي أقسمُ بشر رهيب . .

والله لأذيقه وأسوي به كل ما هو عجيب . .

وتمضي أيام وليالٍ بإحساس مرير . .

وأفقد نفسي وأظل لعينيك أسيرة . .

وضعفت فبقلبي تجبر غرامك . .

يا مَن أهوى وأعشق . . أريد هيامك . .

آآآه . . حبك جمر متقد ومستعر . .

عني بعيد وللقلب مستعمر . .

ارحم يا هواي عقلي وجنوني . .

فحبك يغتال أماني وسكوني . .

يا آدمي . .

أغثني من سطو شمسك على أيامي . .

ومن قمر أناجيه علَّه يخفف هيامي . .

أذهب علِّي أفيق بمعاناة حرمانك . .

يا محتل أحلامي الساكنة بمكانك . .

أرحل وحبك دون عزاء . .

بحياتك شمعة مصيري فناء . .

وقبل الرحيل . . أخبرني . . ما سبيل نسيانك؟

وكيف أعتاد غيابك؟

أُحبك «نايف» .

* * *

أوهامه كانت دومًا سيدة الموقف فيما يخص «فاطمة»، تعايش معها في الخيال وكأنما هي معه فعليًّا، تناسى كل ما حدث، واقتنع بفكرة أنه مجرد أن يجمع ما يكفي، فيمكنه الذهاب إليها وجعلها تترك زوجها لأجله. ستهرب معه، بكامل إرادتها.

لذا كان يتخيلها أمامه، يحكي لها أحداث يومه كاملة، إلا تفاصيل خيانته وأنه جاسوس؛ فهو لا يريدها أن تخاف منه أو تتركه، كانت «فاطمة» تغني له وتشاكسه بأنوثة، تسمعه أشهى الكلمات، تتغنج وتأتيه مُغنية:

الجنون فنون وأنا سيدي أم الفنون..

بك فارسي أسيرة العيون.. فأنا بكَ مفتونة..

بغرام سحر جفونك صرت مجنونة..

كان قرار حبك القلب وحده عنه مسئول..

عقلي متغرب ووسط ظنون الخوف معزول..

الروح تناجي بظلام الليل دون خمول . .

فالكل يلوم ويعاتب كأنني مجنونة مأفونة . .

آه يا شفرة روحي الحالمة وبك متكسرة . .

ترس الحياة الضابط لأيامي كلها الهائمة . .

هيا «نايف» اصرخ بهم قل لهم : ابتعدوا . .

«نايف» . . حياتي صارت ببعدك مضطربة . .

بغيابك باتت الروح مقهورة معيبة . .

يا فراق ملأ الأرجاء برحيق الغيبوبة . .

سأترك عالمي وأنصرف . .

لأعود لمن تركته في يوم كنت به مغيبة . .

«نايف» . . إذا تركتني وحيدة . .

سأعيش الواقع بمرارته . .

وأترك كل ما أنا له مسحوبة مسحورة . .

فربما استطعت العيش دونك ودون روحي . .

في هذه الدنيا مأسورة مسجونة .

* * *

«شهرنان» . . استحضري أرواح المحبين وهلم قصي علينا إحدى الحكايات، أو مارسي هوايتك في جمع الأصداف والمحار وأرسلي إلينا روحًا محبة، اجعليها تحكي ما مرت به في مغامرة الحب والهوى، ولتخبرنا ما نهاية ما عاشته ورأته في حكاية غرامها .

هَلَّ رجل أبسط ما يقال عنه كوصف إنه عاقل ويبدو عليه الاتزان : ملامح شرقية، أسمر القسمات، تسبقه رائحة المسك والعنبر، لكن تفضحه عينان معذبتان حزينتا اللمحات .

قال: سأخبركم عن حبيب كان لي شريك حياة وأحلام، لكنه أتقن الخداع واللعب مستخدمًا سحر ودلال الكلمات، قتلني واغتال حبي باحتراف، رمى الخُدع وألاعيب الهوى والغرام لغيري متسليًا، ثم أتى مدعيًا حبي، وأنني الوحيد الساكن في الروح والخيال.

ابتعدت، هجرت نعم، فلقد نالني التعب من اللهث خلف أوهام حب وعشق عنكبوتي القسمات، شبكة خانقة وكأنما صرت له عدوًّا يبتغي منه الانتقام.

فيا من ادعيت الموت حبًّا، وأن قتلك كان بيد الحبيب والوسيلة فراق وهجر، قُلت: غدر بقلبك المغرم صبابة، لم يراعِ فيك أي كرامة، أرسلك لعالم أشباح معذبة مكبلًا بأصفاد الرفض والنكران.

اسمعني جيدًا يا محترف البكاء، ما عاد الصبر يحتمل منك الكذب في كل حال وآن، أنت الغادر القاتل للأماني، نعم أنت من بدأ بمد حبال الفراق وهجر وبعاد مليء بغدر ولؤم في كل

الثكنـات، والآن تلـوم وتلقـي الاتهامـات! تقـول: فـارقني، هجرني، عذبني.. يا هذا، لِمَ لا تتحمل من أفعالك التبعات؟!

أنت، نعـم أنـت مـن جعلـني أفـر متـشرداً في الـبلاد، وأنـت المسئول عن كل هذا الغياب، وعن اختفاء الفرحـة مـن القلـوب، وعن سلب بهجة الأعياد بالعيون، تعذيب روح وقلب المحبـوب، وأنت وحدك السبب في عذابك الحالي وتفتيت قلب حبيبك.

لِمَ لا تتقي الله فيما تفعل وتقول؟! أستهوتك الشكوى أم أنك عن عـالم الحـب مغيـب؟! أشُـلت أحاسيـسك وبُـترت مـشاعرك وضاعت روحك وسط الظلام؟! أخبر حبيبك المعذب عمَّا تفعل، من هذا المسخ الماثل وليس فيه منـك غـير هيكـل خـارجي وسـحر الكلمات؟!

يا هـذا.. معًـا مررنـا بـالكثير، مـسافة كـبيرة جمعتنـا تتبعهـا مسافات وأوقات، ذاب خلالها القلـب هيامًـا بنبـضات كلماتنـا، وهدأ العقل بوجودك ولقَّبكَ حبيبًا، آه ثم آه منك ومن الحياة، ذاك الكائن غير مستقر الأحداث.

هل اتفقتما معًا عليَّ لإجباري على فعل أمور خارج نطاق إرادتي؟! فأنت من جعلني أختار الابتعاد عنك وعن مجال عالمنا الساحر؛ لذا أرجو منك السماح؛ فأنا لم أعُد أحتمل العتاب ولا الملام، ولن أطلب العفو والغفران، فأنت يا شبح حبيب سبب هذه المأساة.

* * *

إلى العمل

تعلم «نايف» كيف يقترب من الجميع، نساء ورجالًا، حتى الأطفال تعلم أن يُحضر لهم حلوى ويوزعها، وفي أثناء تبادل نكاته معهم يجمع مزيداً من الأخبار، ألم يخبرونا قديمًا أن سر البيت مع أصغر من فيه؟!

كثَّف أيضًا من زياراته لمخيمات الفلسطينيين في الجنوب – الرشيدية والبرج الشمالي والبص في صور، وعين الحلوة في صيدا ـ لم يترك مكانًا يمكِّنه من اقتناص الأموال، أقصد الأخبار، إلا وذهب إليه يعسّ، لم يعد يردعه رادع أو يمنعه مانع، فها هي الأيام مرت دون أن يشك به أحد، ما زاد ثقته في قدرته على اجتياز أي شيء يريده، والحصول على ما يريده من معلومات.

حتى بعد أن لاحظ عن قرب، وبعينيه، مظاهر الحياة المعيشية الصعبة بالمخيمات، وكيف يعيشون على الكفاف داخل أعشاش من ورق وخشب، كيف يعانون الزحام والبطالة والمرض، تعزلهم عن عالم الحياة الأسوار والمآسي ورائحة موت ذويهم وأحبتهم فداء لوطن مسلوب.. لم يهتز جفنه لرؤية عيون بريئة قُتل

ذووها، أو أُخذوا ليرموا في غياهب سجون الاحتلال، لم يمنعه شيء عن ضخ مزيد من الأخبار وقتل مزيد من الآباء، بل وتسليط الضوء على أماكن يمكن قصفها للانتقام والرد على ما يفعله بهم الفلسطينيون من سُكان المخيمات، تحجرت مشاعره كما حجر صوان.

بل هكذا نظلم الحجر الصوان؛ فهو يمكن أن تنبت من خلاله زهور وورود جميلة يرويها ماء الأمطار، أما «نايف»، ذاك الخائن، فمن يروي قلبه الحالك الظلمة؟ فقلبه مات دون أن يُشيعه إنسان.

دُفن بأرض خربة، وسط قمامة شهوات متدنية، لم يعد يهمه غير الثراء وتجميع المال، أيًّا ما كان ثمن ذلك، وبمن يُضحي ليحصل عليه، لطخَ شرفه بتراب الأعداء، داس على كرامته بحذاء ذُل خيانة دون حياء.

باع نفسه للشيطان، مقابل بضعة ليرات، كما باع يهوذا سيدنا عيسى بدراهم معدودة، لكن يهوذا شنق نفسه، فهل سيفعلها «نايف»؟ لا أحد يعلم ما ستجلبه الأيام.

إمعانًا في الخيانة، كان يُشارك أحيانًا في محاولات إنقاذ المصابين، دفن من استُشهد جرَّاء القصف الإسرائيلي الغاشم على المخيمات، يمنح القليل من الأموال متعللًا بضعف إمكاناته وإلا كان منح المقاومة وأُسر الشهداء أكثر، لتلميع صورته، ليكون مقربًا من مصدر معلوماته وأخباره، واستمر في بث رسائله:

ثلاثة يستعدون للتسلل عبر المنطقة الشرقية، قبل الفجر بساعة، وستكون العملية تفجيرية.

هناك لنش مطاطي يستعد للإبحار به أربعة: فلسطينيان ولبناني وأردني، الهدف غير معلن بعد التوقيت فجراً.

قبضوا على «سعدون» في قلعة الشقيف، ما زال رهن التحقيق.

* * *

«شهرنان».. غني لنا عن الحب والصفاء، عن مناوشات بين الأحبة؛ فقد تعبنا من قصص الفراق، غني عن حب خيال يداعب الأكوان خلف حدود عالمنا المعاق بأفكاره، أخبرينا عن أغنية بها

عاشقة لحبيب تراه جمالًا لا ألمًا يتعبها، وخبِّرينا عن وفاق موجود بين العشاق.

لتتحدث فتاة قائلة: ستُخبركم «شهرنان» يا رفاق عن قصتي أنا وقصة حبيبي الملاك، آه منه، يا منى القلب لك مني سلام وتحية، أقدمها لصباحك ومسائك نجومًا درية، أفرشها بسمائك لتنير السحب بوردات صيفية.

بقبلات يدي أزيل خريف أحزانك، وببسماتي أمحو شتاء أوجاعك، وبنكاتي أزين ربيع عمرك الباهي، وبغمزي أثير ضحكاتك الشهية.

لتطلق نظرات عينيك بنصف براءة تداعبني، وبلمسات حانية تلاعب شعراتي المخفية وراء أُذني، وبصوت حنون تُسمعني أشجى قصائدك النزارية، تهدهد لخيالي وتحنو على كلماتي، لتكبر وتترعرع قصائد حبي فيك رومانية النغمات.

يا عزة نفسي . . أفديك بخيالي المتكون بوجودك في حياتي، الضائع من غيرك أنت يا أغلى ما لديَّ، أموت ولا أرى يومًا صوتك الشاكي، أموت ولا ألمس نظراتك التائهة في هذي الدنيا .

أبيعك فرحي وهنائي والثمن غال باهظ، هو حفنة من تراب رجليك، نظرة رضا عن حالك وحالٍ كل ما تراه يا ضياء عينيَّ، يا بسمة روحي وربيع عمري، يا تعويض القدر لكل أيامي ولياليَّ .

يا ساحر التكوين، أعشقك براءة لعمري، صفاء روح ونقاء لقلبي، تملأ براحة بال وجمال عينيّ، معك أعيش داخل شعاب أحلامي أميرة، وبين دفات مركبنا الساحر أرى ما أفتقده بواقعي متجسداً رؤية عين .

معك يتحول نومي إلى أغنية من حورية أحلام، تمنحني صحبتك عصا وكرة بلور لأحقق غاياتي، وبين يديك أتعلم تمتمة تعاويذ سحرية تنقلني معك بين مجرات الأحلام .

لنشكل أوبرا تروي عن عالم أحلامنا وآمالنا وما نطمح إليه، ونصمم رقصات باليه تسرقنا ببراءة خيال حركاتها، وعلى مسرح الحياة نعلم بني آدم، هؤلاء البشر العنيدين، معنى أسمى للحب.

حب الخير ومساعدة الغير دون هدف يبرز كتشوه قصر بطراز عباسي المعمار بخشب يتنفس سريالية.

* * *

رسائل.. رسائل

عشرات الرسائل بثها نايف المصطفى إلى الموساد، ما أفشل الكثير من عمليات الفدائيين، سواء بالقبض عليهم أو بقتلهم عند محاولة اجتياز الحدود.

كانت زياراته متتالية للمدن اللبنانية، خاصة مدن الجنوب، وفي إحدى زياراته لمدينة صيدا، في سبتمبر ١٩٧٢، تقابل، في طريق البوليفار القريب من البحر مباشرة، بفتاة عرجاء ظنها تتسول.

لمح فيها جمالًا هادئًا جذبه إليها، تخيلها تناديه بنظراتها، تتغنج وتشير بدلال لتثيره، حتى إنه في لمحة عين تخيلها مرتدية فستانًا أحمر عاري الصدر والكتفين يُظهر ساقين كلوح بنور، يُظهر قسمات جسد ناري، أثاره وزاد إثارته ما تخيلها تُسمعه إياه بصوت مبحوح وهي تدور حوله بهدوء وخمول مقصود..

يا أنت . . أراك وسيمًا تتبغدد، على قلبي تتآمر بتودد، وعلى حسنك يا رجل تتمرد وتُظهر جفاء كخداع متجرد، معجبة بك . . أحبك فلا تستدعِ عدائي، أعجبك أعلم فلا تخدع ذكائي . .

استغل دهائي لأني أرغبك وأتمناك، حتى إني استبدلت بدوائي هواك، لا تلقِ كلمات جارحة، وتُشر إشارات ذابحة، فحبك فعلًا قد سيطرَ، والشوق بقلبي قد سُطِّرَ، تعال، بسواك أبدًا لن أقبل، هيا لا تتأخر، هلم أقبل . . ومن أنهاري تعالَ لتنهل . .

تحيطني أشياء هوجاء كلها صفات سوداء، وفي حبك صرت أسيرة مشاعر بيضاء، تأخذني من دنيا البشر غير الأسوياء، لتزرعني وردة بجنة حبك بكل صفاء، تسقيني عطرك لأظهر للعالم زهرة حمراء، تنير الدنيا بجمال صاف ينير الكون ببهاء، ويغير العشاق من حب شهي الأفعال دون حياء.

تشجَّع بظنونه هذه واقترب . . أعطاها بضعة ليرات، ثم سألها: هل أنتِ فلسطينية؟

ـ نعم.

ـ لمَ تتجولين هكذا؟ تبدين صغيرة السن . . أين أبوكِ؟ ولِمَ تعرجين؟

أجابته : نعم أنا في الرابعة عشرة من عمري، وأبي فقد بصره وإحدى يديه في انفجار عبوة ناسفة، وأعرجُ لأنني كُنت معه وسقطت سقطة مريعة على الأرض أثرت على ساقي .

ـ ماذا؟ هل حاولتما الاقتراب من مكان الفدائيين؟

ـ لا سيدي، بل كان يعدها، هو كان في فريق المقاومة، ولي شقيق تطوع في صفوف المقاومة اختفت أخباره منذ سنة، نُقيم بمخيم عين الحلوة ونشارك الفدائيين الحياة ذاتها .

ـ الحياة قاسية خاصة إنني أعول عائلتي بعد وفاة والدي .

ـ هي الحياة سيدي، والحمد لله تبدو ميسور الحال، هنيئًا لك .

ـ هل يتكفل زملاء أبيكِ بإعالتكما؟

ـ رفضنا . . نستطيع التعامل مع الحياة وإعالة أنفسنا، لديهم من هو أهم منا .

ـ حسنًا إذًا، ماذا لو أعطيتك هذه الأموال كلها ـ ٥٠ ليرة؟

أجابته بحيرة: ولِمَ هذا؟

أشار إلى جسدها، ونظر إليها نظرة ذئب جائع، حاول هذا البائس أن يراودها عن نفسها، فما كان منها إلا أن نظرت إليه شزراً بغضب بركان على وشك الانفجار، رفضت وهمَّت بالانصراف، ليرتكب كبرى حماقاته . .

استهان بكل ما قصَّته عليه، عن والدها وأخيها، وبرفضها بيع جسدها، اعتقد أنها مثله يمكن أن تبيع الدنيا نظير أموال أكثر قد يعرضها عليها، لم يراعِ حتى عرجها ليُدرك أنه بسبب من يُساعدهم ويمدهم بالأخبار . . ناداها: انتظري .

* * *

«شهرنان» . . قصتي ليست مع الحبيب، هي مع صديق كان لي الحياة، امنحيني قليلًا من وقتك لأرسل إليه رسالتي . .

«شهرنان» : تفضلي . .

الصديقة : أهلًا يا من كنت صديقي، من دوني أمرتاح وسعيد لحالك، تصول وتجول بالأرجاء لتشكو سوء صنيعي لجميلك، تنعتني بأسوأ صفة وبأني شيطان هالك قد نالك؟

قدمت لك حبًّا وجمالًا دون مصلحة، وأهديتني رصاصات الخسة وشرارة، أعترف بجميل صنيعك وأذكره فترسل بحقارة قيل وقال وقلوبًا غدارة، أراك كبيرًا مسئولًا فتصدمني بصغير أفعالك فرحًا بالناس المبهورة .

يشيب الرأس لتطاير نيران الغدر من عينيك، على الرغم من صفائها وبراءتها، يتفتت القلب قطعًا فزعًا من روح عشقت الخبث، دنوت بهدوء وذكاء لتقلب حياتي دون رجوع للدين وحيائه .

يومًا قرب أو بعد ستذكُرني، ستعلم أني لم أكن بحياتك يومًا غدارة على الرغم من خياناتك، وتدرك أني جاهدة حاولت مساعدتك لترقى بأفكارك وملكاتك. .

حاولت معكَ لتجد الصفاء والجمال والحب بنقاء في الحياة، حاولت نجدتك من خوف سيطر على قلبك وروحك بضياع كل ما هو جميل وراقٍ بهذه الدنيا. .

عش الحياة، انسَ وجودي، ويومًا ما ستذكر أيامي، قد تندم لضياع قلب أحبك على الرغم من تضخيمك لعيوبي وإهانتك، أو قد تكمل، كما أنت معتاد، حياتك وسط شكوك من بشر وحياة، جرحت القلب فآه بمقدار كسرة قلبي وبحجم حرقة روحي، آه بوزن ما ضاع من عقلي فداء صداقة بالية، آه ثم آه منك صديقي.

* * *

الفصل الرابع - مبادلة خاسرة

«نايف»: انتظري.. خذي هذه (قدم لها مائة ليرة)، أخبريني بأسماء الفدائيين في مخيمك «عين الحلوة»، عَلِّي أعرف أحدهم وأذهب إليه لتقديم بعض المساعدة.

وكانت هذه غلطته المدمرة والقاتلة!!

لمَ الأسماء؟! يمكنك الذهاب وحدك، ثم أي مساعدة تقصد؟!

«نايف»: مجرد فضول، أنا تاجر ويمكنني إفادتهم، هيا أخبريني ولكِ عندي مكافأة كبيرة، عندما أتفق معهم..

ذُهلت الفتاة وشعرت بالريبة وأنها تحادث شخصًا به شيء غير طبيعي، قد يكون خائنًا، يريد شراءها برخيص الأثمان لتبيع ما هو غالٍ وثمين، فزعت لكنها تصنَّعت الهدوء والتفكير.

الفتـاة: أأأ.. تقـصد أأأ.. وانتهـزت الفرصـة لتتلفـت يمينًـا ويسارًا ممسكة برأسها وكأنما تتذكر، حتى لمحـت سـيارة عـسكرية تقترب، فصرخت بكل قوتها:

جاسوس، جاسوس..

فزع «نايف» وانطلق كصاروخ أرض جو، تخلت عنه شجاعته وجرأته المزيفتان وتملَّكه رعب قاتل، فاسـتمر في العـدْو، جُـل مـا يُفكر فيه: هذه حياتك «نايف» فانجُ بها..

* * *

«شهرنان».. يا غنوة بين كل الروايات، يا قصة حلـوة تتغنـى بها الفتيات والأولاد، تعالي واحكي عنَّـا، غـني أغنـيتي الـساكنة فيَّ، عـشقت وآه مـن وجـع خطواتـه علـى قلـبي الـساهر المتـيَّم للغريب..

حبيبي ذوَّبني وتركني أعاني سهر ليلي وسهادي.. آه يا ليل، بعاده وصدُّه أوجعا قلبي، يا عمر ضاع في ثانية يوم وجدت حبـك

ساكنًا داخلي، قلبي فداؤه يغني مواويل تهدم جبالًا ولكنها لا تستطيع إحضاره بقربي.

آه يا ليلي.. يا «شهرنان».. قلبي عاشق لحب وقسوة بقرب الحبيب، حبيبي جنني وعندما طلبت منه الحنان قائلة: يا طب عينيَّ ضمني لأنفاسك، داوني بعطر روحك يا كلي أنا. قال لي: أنا عنيد وقلبي صعب الإمساك، حبي أنت وأنا هنا أعيش ملكًا في البعاد. «شهرنان».. غني حكايتي وأعلنيَ إذا فشلتِ في إرجاعه أن عشقه يورث قلبي إرهاقًا خانقًا لعمري.

أخبريه أن الحب حنان، أنه ليس بعذاب، قُولي له: حبيبي هو وحبيبته أنا، إذًا لِمَ البعاد والعذاب والفرقة التي لا لزوم لها إلا العناد الذي ليس له دواء، أعلميه أنه بسبب بعاده سأتركه وقلبي لنبدأ من جديد.

أخبريه أني من رحم أيامي سأولد من جديد، من بين أشياء مؤرقة معه سأكون هنا من جديد، سأبدع وأنطلق وأعيش، سأكون أنا، لن أموت ولن أقيَّد بأغلال حبه من جديد.

سأبدأ بنقاء لأفرح قلبي، أين سأذهب؟ وإلى أين سأصل؟ لا يهم، من جرحني؟ ومن أتعبني؟ من خنقني؟ ومن تركني؟ من سلبني حق الحياة وقتلني؟ لا يهم، كل شيء انتهى، ذهب بعيداً جداً عن مجال أفكاري وحياتي، لا يهمني ولم يعد يفرق معي.

قررت أن أسلك درب نسيان حبيبي وأن أحب من جديد، أفرح وأُدخل قلبي قصة حب بشروط تخصني أنا، وفق أحكامي وقواعدي المنظمة، وكأني فرعون لمصر أحب بأمري وبإشارتي يا «شهرنان»، سأختار من أنصِّبه على قلبي سلطان الغرام.

سأخبره أنه هو سيد الأحداث بحياتي، سيد الأيام، سيد قلبي الغالي الحبيب، وبأنه سيد زماني الحبيب.

سأترك حبًّا يعشق البعاد كما يريد، لقد مللت السعي الحثيث خلف حب يهوى الفراق، «شهرنان».. أعلني للدنيا أني من رحم أيامي سأولد بحب جديد.

* * *

رحلة هروب

في أثناء هربه وجد أنقاض مسرح قديم، فدخل إليه مسرعًا واختبأ بمكان ناء بعيدًا عن الباب، بعد أن تملَّكه التعب، وأفقده التوترُ القدرةَ علَى التحكم بثبات حركاته، استغرب المكان؛ فهو على الرغم من عشقه للسينما والتمثيل لم يدخل قاعة مسرح من قبل، لم يحاول حتى فعل هذا، والآن هو مختبئ بين أنقاض مسرح.

أمعن النظر كي يحاول تجميع صورة لما حوله في ظل ظلام يلف أرجاء المكان، أخرج قداحته، صحيح هو لا يدخن، لكنه يحب الاحتفاظ بها وبعلبة السجائر تحسبًا لأي ظرف قد يمر به، خاصة أنه يستخدمها أحيانًا للتقرب لأحد الأشخاص لاستقاء معلومات عن الفدائيين الفلسطينيين.

سمع وقع أقدام بالخارج فأطفأ قداحة السجائر وجمد في مكانه، ثبُتَ وتجمد كميت، كان يسمع دقات قلبه كما لو كانت دقات طبول أفريقية يوم عرس الزعيم، حدّث نفسه:

آه يا «زياد»!! أين أنت الآن لتنقذني؟ لكن كلا، لا أريده أن يعلم فيطردني من جنتي ونعيمي المستمر، لن أخبره أني قد مررت بهذه التجربة، سأذهب إلى البيت وأدَّعي المرض كي يكون هناك مبرر لاختفائي أسبوعًا على الأقل، ثم أعود إلى عملي وأتحجج بأي مبرر لأسافر خارج لبنان كلها، يمكنني السفر إلى تركيا، أختفي شهرًا وسط ملذاتها، عندما أعود ستكون الأوضاع قد هدأت ومر الأمر بسلام..

نعم.. نعم، هذا هو التفكير الصائب، يا الله، ماذا سأفعل إذا انكشف أمري وقُبض عليَّ؟! لن أسمح بحدوث هذا، فستكون فضيحة بكل الأحوال..

ما هذا السكون القاتل؟!

حدث نفسه بالكثير خلال فترة اختبائه، حتى مرت ثلاث ساعات وهو ثابت لا يتحرك من مكانه، نظر حوله للمرة الألف ثم تسمَّع جيدًا فلم يسمع أي شيء سوى صوت أنفاسه المتلاحقة..

حسنًا، تبدو الأجواء بالخارج الآن هادئة، بالتأكيد فقدوا الأمل في العثور عليَّ، كانت فكرة الاختباء هنا فكرة عبقرية، آه يا ولد، يا لك من فنان، أنت أستاذ الاختفاء والدهاء. .

سأُخبر «زياد» بالأمر وأطلب زيادة أجري نظير المخاطر التي أتعرض لها، وسأحمِّله تكاليف سفري إلى تركيا للاستجمام كتعويض عمَّا مررت به.

شعر بالطمأنينة أخيرًا وهدأت معاول دقات قلبه، خرج متسحِّبًا وكأن شيئًا لم يكن، كي ينطلق إلى منزله يلتمس بعض الأمان في حجرته وعلى سريره تحديدًا، أو حتى ليختبئ قليلًا ويتوارى عن الأنظار في أي مكان آخر، كي يُفكر بهدوء فيما يُمكنه فعله مستقبلًا، فيجب ألَّا يعرِّض نفسه لهذا الموقف ثانية.

سار متلفتًا يمينًا ويسارًا كما لص قاتل، حتى وصل إلى المنطقة الواقعة بين شركة الداتسون والتيرو بطريق صيدا القديم، ليسمع صوتًا يرعد فجأة: ها هو. . اقبضوا عليه.

لم يتخيَّل أنهم أدركوا بحسهم العسكري أنه بالتأكيد لم يخرج من المنطقة، وأنه اختفى في أحد الأماكن القريبة؛ لذا داروا بسياراتهم في حلقات حول المنطقة انتظاراً لخروجه أو ظهوره من مكمنه.

انقضّ عليه رجلان وكبلاه، فيما انهال عليه آخران ركلًا وضربًا: يا خائن.. يا لص.

وهو يحاول أن يدافع عن نفسه ليتقي شر ضرباتهما الموجعة، صارخًا: من أنتما؟ لا أعرف لِمَ تفعلان بي هذا؟ أنا رجل بريء لم أفعل شيئًا!! بالله عليكما اتركاني لشأني.. أنا موظف بريد مسكين لا دخل لي بهلوسة تلك الفتاة، إنها مجنونة تنتقم مني لأنني رفضت أن أدفع لها المبلغ الذي طلبته لتبيت معي الليلة.

كان ينظر شزراً في أثناء هذا كله إلى الفتاة وكأنما يتوعدها بشر قتلة؛ فهي من قلبت حياته رأسًا على عقب، لِمَ لم تأخذ الأموال وتسلمه نفسها وقليلًا من المعلومات؟! فتاة غبية!!

لم يتركوا له المجال للفرار، دفعوا به إلى السيارة الجيب، ليشاهد عن قرب الفتاة تجلس مزهوة فرحة بما فعلت، واثقة تنظر إليه بشموخ؛ فلقد أبلغت عن خائن.

أخذوه إلى معسكر فلسطيني خاص بهم بطريق «دير قانون البحر»، وبتفتيشه وجدوا بين طيات ملابسه رسومًا كروكية بخط اليد لمواقع فلسطينية في مثلث الراهبات، وشارع رياض الصلح، ورسومًا أخرى لأهم المفارق الحيوية بصيدا، وبعض الرسوم لمناطق الأحراش على الحدود بعلامات بارزة على بعض المناطق.

تركوه ملقى بإحدى الحجرات الضيقة على الأرض، كانت الرائحة نتنة.. ظل هكذا يومين، ليراقبوه من إحدى الفتحات المخفية بالحائط، في محاولة لاكتشاف شخصيته وتركيبة نفسيته، التي كانت في أسوأ حالاتها.

كان مع كل دقة محيطة يتوقع الموت، وعندما يُفتح باب الحجرة يتوقع الضرب، كم كان يبلغ رعبه مداه عند إدخال طبق الخبز الجاف وكوب الماء؛ فقد كان يتوقع خلطهم السم بالطعام ليقتلوه دون تعب..

يبكي ويبكي ليشعر بمدى ضعفه، لم يعد يدري ماذا سيحدث؛ فكل ما يُفكر فيه هو موته بمختلف الأشكال والألوان.

تذكر والدته وإخوته: كم يعانون الآن؟! يا الله.. ماذا فعل؟ لقد وضع رأس والده المتوفى منذ سنوات في التراب، كيف يتعامل أهله مع الجيران؟ كيف يعيشون الآن يا تُرى؟ لقد جلب لهم العار.. كم تمنى لو صدقت كلمات «زياد» ووعوده بإنقاذه إذا حدث له مكروه، أين هو الآن؟ هل سيحاول إنقاذه كما وعده؟!

ليُطمئن نفسه ويحثَّها على التماسك، قال: لن أسمح لهم بإثبات شيء عليَّ، لن أسلم لهم رقبتي.. سأماطل حتى يأتي «زياد» ويُخرجني من هنا، لن أدعهم يقضون عليَّ فأنا الأذكى، وسأخرج من هذه الأزمة سالمًا.

لتعود ذكرى «فاطمة» تطوف بخياله من جديد: يا ترى، هل تذكرني؟ ماذا تقول عني الآن؟!

هل أدركت أنها سبب كل ما أمر به؟

آه فاطمتي . .

أنت الحياة أم موت انجلى؟ حبك جنتي وناري في العلا، بين أحضانَ خيالك سفري ورحالي، قلبك أشتهي ليكون بيتي العالي، يا سري الحبيب ومالكة لأحلامي، أمن يسكنني في صحوي ومنامي، اسمكِ لا يزال دواء روحي وطهر غنائي، وستظلين حُلمًا أثيراً . .

لكِ مني حبي ووفائي، سيمر الزمان وسنظل أحبة بخفاء؛ لأنك استَبحتِ دماء هواي بالجفاء، وفارقتِني .

* * *

«شهرنان» . . صوت صاخب ينادي . . ثم تندفع صبية مليحة لتعترف . . مندملة روحي على حب تشعب في ثنايا خلاياي كقطرات مطر ندي يسقي الأرض العطشى منذ قرون، حب الواقع وتشابك خيال وأحلام في دنيا الآه . .

عشق حياة وصمود وخطوط حماية وأمان من تيه الأوهام، حب لرجل الحكايات الفارهة بسمته، الناقل لعدوى الحب بتفاؤل

على الرغم من آهات الأيام، حرارة حب ودفء قلب يغطي أنثاه برموش العين الناعسة، ويضم الروح بكف ما بين ليونة حب وقسوة حياة عُجنت لتثير اللمسات هيام وجد وغرامًا متناهيًا.

حب يخبئ قصص وروايات أعاجيب، عالم خفي سماؤه قناديل حب ونجوم بسماته أمطار زخات ماس ولؤلؤ فواح لعطور غرام، سحاباته صافية زاهية مزينة بالنرجس وقليل من قرنفل ينعش القلب الملتاع، غيماته تنذر بتصالح أحبة وهيام يغطي الأجواء بمرح وغناء، بحر موج بزبد العسل، وماؤه قطر لورد جوري مُشَهٍّ أخذ بمتعته الأنفاس، عالم بحيراته فل وياسمين مقطر، حتى أرضه ناعمة بها شجر البلوط بيوت غناء تتزين بجبال نسيم منعش مرطب بذرات ذهب وفضة فيحاء.

عالم خيال صاف يحوي من البشر الأنقى والأصفى والأكثر حبًّا لأحبته ولغيره من بشر الدنيا، عالم بشره يعيشون بمدينه فضلى من وحي خيال العشاق.

طاقتها حب ونيرانها مشاعر وأحاسيس متبادلة، بشر يسقون العالم أجمع الأمل في غد أفضل ومستقبل أنقى تحكمه شرائع

ودساتير ربانية لا تشوبها دسائس ومكائد بني الإنسان، لا مصالح ولا أهداف مخفية، الهدف الأسمى هو رفعة وعلو الشأن.

قضيته خير الإنسان وحقه في عالم صنع من وحي خيال العشاق أحبة وحياة قبل الموت الأكبر ليعيشوا حياة أخرى أجمل مما يوفيه الوصف في جنات عدن ورضوان الحنان المنان، الله.

* * *

تحقيق وتغابٍ

أحضروا «نايف» في اليوم الثالث، وتُرك في حجرة صغيرة لثلاث ساعات دون أن يحاول أي شخص الاقتراب منه أو الحديث إليه.

أربكه هذا كثيرًا وأثار أعصابه بشدة، لكنه طمأن نفسه أنهم يفعلون ذلك لأنهم لا يجدون ما يدينه، كان مقتنعًا كليًّا بأنه سيخرج من هذا الأمر سالمًا، وسيطالب برد شرف عمَّا لحقه منهم من إهانة بهذا الاتهام الشنيع، ما كان يصبِّره أنه لا أحد من ذويه قد جاء لزيارته، ما يعني أنهم لم ينشروا الخبر، ولن يعرف أهله وجيرانه أنه مسجون بتهمه الجاسوسية.

لا يعلمون مَن يتعاملون معه، سيجعلهم يندمون على فعلتهم هذه.. لكنه لا يعلم لِمَ معدته تصرخ هكذا ويشعر بضعف أنفاسه وكأنما سيخنقه شبح مجهول.

كانت الغرفة لا تحتوي إلا على طاولة مربعة الشكل وكرسيين من الخشب شديدي التهالك، ولا توجد نوافذ، فقط الباب هو

مدخل الغرفة الوحيد، ينيرها مصباح واحد كبير ذو وهج شديد الحمرة، يثير رعبه، فجأة فُتح الباب بعنف شديد ليدخل اثنان يبدوان شديدي الغلظة يرتديان ملابس المقاومة المميزة، يخفيان وجهيهما، ما يجعلهما بالنسبة له شديدي الرعب، لكنه ظل يدعي التماسك؛ فهو لن يترك المجال لأي هفوة أو خطأ يحدث فيقضي على حياته، بدآ التحقيق معه، وحاول قدر استطاعته أن يناور ويتغابى ليهرب من العقاب.

ظل أسبوعًا يناور ويهرب ويتغابى، في كل مرة يتركانه ويودعانه محبسه دون نتيجة مرجوة من التحقيق، دون أن يحاولا حتى تعذيبه؛ فقد أدركا جيدًا أنه سيُخرج ما بجعبته معترفًا بكل شيء بقليل من الصبر دون عنف، يدركان مدى جُبنه وتصنُّعه الشجاعة، تعذيبه هو تركه مع نفسه دون صب نيران غضبهما عليه بإيذاء جسدي.

يكفيه أصوات المعذبين بالغرف المجاورة له، أصوات ساجنيه الصارخة بين حين وآخر في زملاء المحبس بالجوار، وجبته العفنة منتصف اليوم وتلك الرشفات القليلة التي يدفعونها إليه دفعًا.

شعر أنهم يريدون قتله جوعًا، ونكاية بهم التهم ما قدموه، فلن يموت الآن، ما زالت أمامه الحياة طويلة يريد الاستمتاع بها، سيخرج وسيقضي يوم مولده القادم في فيينا ليعوِّض ما يمر به الآن.

مر يومان وبدأ يشعر بالتعب، لكنه تماسك، ما يؤرقه تلك الكوابيس المرعبة؛ حيث يشاهد نفسه مسحولًا على الأرض يتمزَّق جلده ويُسلخ، يرميه الصبية بالطوب والحجارة، مهللين: الموت للخائن العميل.. اذبحوه.. أحرقوه، ليستيقظ فزعًا في اللحظة التي يوقفونه فيها مصوبين فوهات مسدساتهم نحوه.

اليوم العاشر لم يمر عليه إلا وهو منهار نفسيًّا وعصبيًّا، أتت النهاية أسرع مما كان يتمنى، أعصابه المتوترة لم تحتمل تلك الخبطات المُهددة، ولا تلك النظرات المتوعدة، ولا هذه الكوابيس المستمرة، واعترف بعمالته للموساد، وأرشد عن الجهاز اللاسلكي الذي يَبُثُّ منه رسائله.

ذهبوا إلى منزله ليقلبوه رأسًا على عقب، حتى عثروا على جهاز اللاسلكي بقاع سحري بدولاب ملابسه، ومعه أربعة آلاف دولار وستة عشر ألف ليرة لبنانية، كان هذا مجموع ما ادخر من ثمن

خيانته وتجسسه لمدة عام، بالإضافة إلى صندوق صغير يحتوي على مجموعة من الرسائل مكتوب على ظهر المظروف الذي يضمها «فاطمة» . . أمسك أحدهم بعدة خطابات منها ليراها وفتحها وقرأ سريعًا ما كتبه «نايف»، وكانت كلها عتابًا لحبيبته «فاطمة».

* * *

فاتنتي «فاطمة» . .

أرسل لكِ قبلات وقبلات تعوض حرماني . .

أتمنى رؤيتكِ غاليتي، فهل بجوارك تفتقدينني؟ أنا . . أفتقد سماعك لحكاياتي، حبك لرواياتي وكتاباتي، تشجيعك لخيالي وظنوني، خوفك من عقلي وجنوني كلما جئتُ أمام مدرستك، حبك لانطلاقاتي ومغامراتي للقائك، أتذكرين وتسألين عن رواياتي وما كنت أسرده إليك في خطاباتي؟!

أتتنفسين بألم عندما تذكرينني؟! أتتنهدين مبتسمة لذكريات عني؟! أتتمنين ليلي ونهاري ورجوعي؟! أتشعرين بقليل من الندم لضياعي؟! أفتقدك بجواري، فهل تفتقدين وجودي؟!

أنتِ فاطمتي يا عاشقة لفراقي، أرجوكِ، اقتربي، أحبك يا قدري بوفاء، لا خوف وحيرة، قربكِ مبتغى دون حياء، عودي وانسي الدنيا والوجود، فأنا الهناء، لا يهمني الناس والأصحاب ولا الأخلاء، أنتِ سمائي ونهاري وليلي، افهميني بجلاء، أنا بالأرض هنا أريدك فلا تقُولي حبي بالسماء، أهواكِ بجنون فاستوعبي لست بالأصم الأخرس.

أناديك وأعشقك بهمسات حبيسة، أتسمعين النداء؟ سأحارب النسمات والبحار وحتى طواحين الهواء، يا تاج رأسي يا أمان وحنان بعمري أبتغيك احتواء، لا يهمني غيرك يا عمري فبُعدك عن أحضاني شقاء وعناء، أنتِ روحي بجسد يهوى فراقي يا أغلى الأسماء، يا عاشقة لفراقي عودي لحياتي لأُنسيكِ هذا الهراء.

مجنونك «نايف».

* * *

فاتنتي «فاطمة» . .

حبيبتي . . أما زلت حبيبتي؟ يا سر آهاتي، أين أنت من كلماتي؟ أين شوقك لمحادثتي؟ أين بحثك عن سعادتي؟ أين لهفتك للقائي ورؤيتي؟ أين غرامك لغنائي وبسمتي؟ أين حبك لليلي ودنياي؟ هل مات ما بيننا؟!

هل افترقت طرقنا؟! هل تبعثرت أمانينا؟! هل ضاع ما كان فينا؟! هل . . . ؟ هل . . . ؟ من اجتاح؟! من استباح؟! من استراح؟! من نالته الجراح؟! من ذهب وراح؟! من . . . ؟ من . . . ؟ حبيبتي، أما زلت حبيبتي؟ لمَ أنت هناك؟! ولمَ أنا هنا؟! أنتظر الإجابة . . فهل ستجيبينني؟!

* * *

فاتنتي «فاطمة» . .

يا عاشقة للفراق، كل عام وأنت بخير وصحة، والعافية تعتنقك اعتناقًا، كل عام وأنت إلى الله أقرب، ومحبّة لكل الرفاق،

كل عام وأنتِ في تقدم، وموفَّقة بكل الآفاق، كل عام وأنتِ أنتِ، وأحلامكِ واقعَ لا خيال، وبوفاق.

الآن أخبريني عاشقة الفراق، لِمَ دائمًا وأبدًا هديتك لعيد الحب فراق؟ نعم.. فراق وفراق ثَم فراق يغطيه فراق، فهل اختزلت جميع الهدايا في هيكل فراق، أم بَخِلْتِ عليَّ بحُبك في هذا اليوم فأبرقت هديتي بفراق؟!

أتظنين مفارقتي أنك ستنالين هيبة أكبر بمنحي يومًا مميزًا مع الفراق؟! أعتقد أنك ترينني أعلى هامةً منك.. وتخشين مني الاحتراق.. أتخافين مكانتي.. ومن حبي الاختراق؛ لذا قررتِ نثر الأرض حولي بالفراق؟

يا أنتِ.. ما زلتِ مبتَدئة في عالم العشاق، أعلمُ أنه لا درب للمحبين في عالم الفراق، ومهما حدث، ستعودين، ويظل قلبك أسيرًا ومشتاقًا، سأظل ملجأ وملاذًا تأخذك له الأقدار بكل اشتياق؛ فأنا البيت الآمن، تحملكِ إليه كل سبل الفرار والفراق.

* * *

فاتنتي «فاطمة» . .

سيدتي الحبيبة ومعذبتي . .

ماذا أكتب عنك وبالقلب شرخ كـالبحر منـك أنـت غـاليتي؟ ولمن أبوح بسري وأنت سر حياتي وماضيَّ ومستقبلي الآتي؟ كيف أغني وأترنم حبًّا فيك؟ بل كيف أشدو في كبرياء وشمـوخ عنـك؟ أخبريني كيف أترنح غَرامًا وعشقًا وهوًى بك سيدتي؟

قد كسرت بي الروح، وبيدكِ اغتلتِ بـي الـنفس والأمـل، يـا حبٌّ قتلني بدلًا من إحيائي وإروائي . .

يا جرح أليم دائـم الوجـعِ، مـاذا أقـول؟ ولمـن أشـكو ومنـك وإليك الحياة تعود يـا سـر حيـاتي ومـاتي؟ يـا جنـة ضـاعت مـني خرائطها .

ما عاد يفرق بعدكِ جنة أم نار أسكنها، أيا حب كنـت أرجـوه وبيـدكِ خنقتـه، وبكـل بـرود وغبـاء وحمـق في تـابوت الـصمت

والإهمال سحقته، يا حزن سكن الفؤاد والوجدان، حتى تمكَّن من أعماق روحي فدمَّرها.

فلتخبريني يا سر حياتي لمن أبوح بسر قاتل عنك قاتلتي؟ لا أنتِ من أحياني وللعراء والسقم تركني أتعذب وحدي أنوح بمفردي دون حضن أو سند، يا سري الدفين فلتعلمي على الرغم مما سبق ما زلت أنتظركِ؛ فأنا أحتاجك أمانًا وحنانًا، أرغبك حبًّا ورعاية.

يا حب عذبني حتى أسكرني من فرط جراح أيامي، يا من أحرقت بيديها عمرًا كاملًا والآن تنادين: أين أنتَ؟ أريد حبك وحنانك.. لكن لا، ابتعدي، فيداكِ لم تزرعا إلا قسوة القلب والتحجر، فسحقًا لكِ لن تجني من ورائي سيدتي إلا كل عذاب وهوان، إذا تناسيت الرحمن ومشيت خلف هواجسي، فأنت شرخ القلب والروح غاليتي.

مجنونك «نايف».

* * *

«فاطمة» . .

رأيتك بالأمس تسيرين مع زوجك سعيدة، كانت نظراتك إليّ باردة كئيبة، شعرت كأنما تقولين: «نايف» . . اذهب، اذهب! ستكون هذه آخر رسائلي إليك غاليتي ..أتريدين ذلك حبيبيتي؟! حقًّا مني الذهاب طلبت؟! وسبب البعاد غيرك اتهمت، سأذهب . . أتعلمين لماذا؟ قدَرانا افترقا وما زلت تنكرين، بالدمَع والنحيب الغزير تكتفين، تصمتين . . تحزنين . . ثم نفسك تركت لأعاصير الحنين والمستغلين، تقفين بمنتصف أمواج السنين، عذبتِني، وكطفل بريء تجلسين، تثيرين الكآبة وبصمت تصرخين.

أتريدين ذلك حبيبيتي؟! حقًّا مني الذهاب طلبتي؟! وسبب البعاد غيرك أتهمتي، سأذهب . . أُتعلمين لماذا؟

قدرينا افترقا وما زالت تنكرين، بالدمع والنحيب الغزير تكتفين، تصمتين . . تحزنين . . ثم نفسك تركت لأعاصير الحنين والمستغلين، تقفين بمنتصف أمواج السنين، عذبتَني وكطفل بريء تجلسين تثيرين الكآبة وبصمت تصرخين.

سأذهب . . فلقد أتعبني البقاء، وسأنهل من خيرات الأرض والسماء، سأختار من تقدم لي بهيام الاحتواء، سأعشق معوضةً لكل هذا الجفاء، في الطريق يومًا قد أراك مصادفة . .

سألوِّح وأرسم ابتسامة محترفة، وأنظر لحبيبتي كطفل وأمه الحنون، لن تغريني لأعود لأقوالك الملتوية الحزينة، يا قلب الحب له إحساس أجوف لكني به مفتونة .

* * *

وضع الخطابات مرة ثانية بصندوقها، وحملها مع باقي ما عثروا عليه بغرفة «نايف»، ليقابلوا والدته وإخوته وهم بحالة ذهول لا يصدقون ما قاله لهم قائد المجموعة بأن «نايف» قُبض عليه في أثناء محاولته جمع معلومات لصالح إسرائيل، عدوهم اللدود، لتصرخ والدته وتخر على الأرض مغشيًّا عليها .

عادوا إليه مرة ثانية بمحبسه، مطالبين إياه بالمزيد من الاعترافات، فكتب بنفسه هذه المرة اعترافًا كاملًا بظروف حياته ومعاناته النفسية التي أثرت على وعيه، علّه يفلت من العقاب .

كما كتب خطوات تجنيده، بدايةً من تعامله مع «زياد» كتاجر حتى اكتشافه حقيقة أمره، ثم زيارته لإسرائيل وكيف استقبلوه كبطل قومي، وسجل كيف سيطروا عليه هناك بالمال والجنس.

* * *

«شهرنان»..

بهدوء تخاطب امرأة ملامحها عاقلة ورزينة وتقول: «شهرنان».. أخبريني، هل نملك قلبًا يحب بصدق دون هدف ومصلحة؟!

هل نحن حقًّا مختلفون عمَّن يحب لأجل هدف ما؟! إذا كنا حقًّا نملكه فلمَ نصر على تعذيبه بأيدينا؟! لمَ نقهره بما هو غير مباح وصعبَ المنال؟! لمَ نكسر بخاطره ونعلقه بأوهام الآمال؟! في النهاية أغلبنا يهينَ قلبه بنفسه، تعددت الأسباب والجرح واحد.

فدينونة الحياة هي منظومة، لا رد ولا استبدال؛ فالعمر بكل لحظاته هو دَين يحاسبنا عليه رب العالمين يوم ميعاد، وأنا أضعت حياتي انتظاراً لفارس على صهوة حصان أبيض يسرقني، لكني

الآن أتساءل: أكان غباءً انتظاري لحب كبير يأسرني من غياهب دنيانا، يسرقني حتى من نفسي؟ لِمَ في النهاية أجد نفسي ما زلت وحيدة وسط صخب الحياة؟

يوم أحببت كان قدري يسير مع من هو مغرور وأناني، بل حتى متوحد مع ذاته، يرى نفسه الحبيب الصدوق، وباقي البشر دونه لا يرقون إلى صداقته، هو الكامل المتكامل وهم لاعبون وسط رماد الزمان، هو فقط من يتألم ويتعذب ويعمل والباقي منعمون.

أخذ فرحة القلب وبهجة العين وبراءة الخيال ثم رحل، واه يا وجع القلب عندما يقرر العناد، فيا أنتَ، أنا لست بجارية أو أَمَة تملكها، فأفق واستيقظ من سباتك العميق، من غرقك ببحرك السحيق، لِي حياتي.. آمالي وطموحاتي وأحلامي.

نعم.. بحياتي أوقات فشل، لكن يقابلها نجاح وإن قلت نسبه، عندي أحيانًا أوقات سقوط، لكن دومًا تتلوها لحظات صعود، يا فرحتي، وأنا أبدًا ما استطعمت واستطيبت طعم زلاتي، دومًا أقاوم صعوباتي وعقباتي وأتحداها بصمت.

يا قاسي القلب، على وصف معدن صلب أسميك، يا من رميتني بمحيط الأكوان المتصحرة، ورسمت بيتًا يخفيني بقبائل جرارة سارحة كالنمل قيدتني، ابتعد عن طريق الأخطار، فأنا كالليل والنهار بحر يغرق كل متباه، ظالم لأحبته حتى وإن كان الثمن الموت بمرارة، ومعك أنا في النهاية ما زلت وحيدة.

* * *

اعترافات

أخبرهم «نايف» أيضًا أنهم صوَّروه بإرادته في أحطِّ الأوضاع وأقذرها مع إسرائيليات، بدعوى أنهم مضطرون لتصويره لضمان إخلاصه لهم، ولكي يحافظ على جهاز اللاسلكي الذي يفوق ثمنه مائة ألف دولار، أضاف في اعترافاته أنهم وعدوه بثلاثين ألف دولار مقابل تجنيد ضابط من صفوف المقاومة.

كتب بقائمة اعترافاته الطويلة أسعار المعلومات المطلوبة، وجملة ما يخصه من أموال ورواتب متأخرة لدى الموساد.

حاول إقناعهم أنه ضحية ظروفه الصعبة القاسية، طلب منهم أن يتركوه وسيساعدهم وسيعمل لصالحهم، طلب فرصة أخرى ليُثبت لهم حسن نواياه، وأنه لن يُخطئ مرة ثانية، فقط طلب فرصة أخرى.. مع كل كلمة كان ينطقها كان يرى نظرات الازدراء في أعينهم له، ليتكوَّم داخل محبسه كل ليلة منتظرًا موته المؤكد..

آه يا «نايف» . . ضاع عمرك هدرًا مقابل ماذا؟ لا شيء! لم تتمتع حتى خلال تلك الفترة القصيرة بما جمعته من أموال، خوفًا من افتضاح أمرك، وها أنت قد كُشفت . .

آه . . يالعمري . . عصور الحرمان أتت بتفاؤل، تبغى الاحتضان والعيش بتوغل، طردتها فبأي ذنب أُقتل وأُعذَّب بتمهل؟ ما فعلت إلا ما أملته الطبيعة بتفنن، أطالب بحقي في الحياة والأمن والسكنى، أنادي بأني أريد الحب والعشق بكل أدب، واه من حنين يعذب القلوب الحيرى بحبي، سأنهل من خيرات الإله بكل ذوق وتأدب.

فما بال الجميع يصرخ بأني سُلبت الأخلاق؟! خلق الله الجمال والحسن للإنسان لنعبده أكثر، وسأحارب من تسول له النفس مواجهة عشقي، فلتبتعدوا، فلقد ولَّت عصور الحرمان بعمري، يا خلق الله أين أنتم من صنيع الله في أموري؟

فالله وحده العليم بما انتويت، هو التواب الغفار لما أرغب من ذنوب؛ الله الأحد ولي وهادٍ لقلبي والقادر على زمام حبي، اهدني

فيمن هديت يا غافر فلك الأمور تعود يا حبيبي، فيا مثبت القلوب وهادٍ ثبت على حبك وعشقك قلبي.

دعا «نايف» أن ينجيه الله، وسيترك البلاد وينتقل لأي مكان آخر لا يعرفونه فيه وسيكون مواطنًا صالحًا، سيعيش كما كان يعيش في البداية بهدوء.

انتهى الفلسطينيون من تحقيقاتهم، فسلموه للسلطات اللبنانية لمحاكمته، فليس من حقهم عمل المزيد.. تركوه للقضاء اللبناني، كما ينص اتفاق وجودهم بالأراضي اللبنانية.

مَثُل الخائن أمام المحكمة العليا ببيروت، أُدين في فبراير ١٩٧٣ بالحبس سبع سنوات، فقط سبع سنوات مقابل كل من ضحى بدمائهم نظير حفنة تراب تسمى نقوداً، أشرق وجهه من جديد.. أخيرًا اطمأن على رقبته وأنه لن يُشنق، ستمر السنوات السبع ويفر من هذه البلاد ويختفي، لكن.. على نفسها جنت براقش[١]..

---

(١) براقش كلبة هاجم اللصوص منزل أصحابها، فاختبأوا، لكن الكلبة اعتقدت أن بإمكانها إيقافهم، ظلت تنبح فتركها صاحب المنزل كي لا

فبعد ثمانية أيام في السجن عقد له زملاؤه السجناء محكمة مصغرة، أعضاؤها الخمسة من القتلة واللصوص، ثم حكموا عليه إجماعًا بالإعدام شنقًا.

* * *

«شهرنان» . . امنحيني فرصة للحديث، لديَّ الكثير والكثير؛ فحبيبي هو هذا الماثل أمامك هناك، فامنحيني فرصة لأعترف له بحبي علَّه يحن ويمنحني من حبه القليل.

يا رجل . . على الرغم من بشريته أراه ملاكًا يعيش وسط قطيع ذئاب، أخاف عليك كالطفل الرضيع وأتمنى لو أخفيك وأداعبك كحمل وديع، تعلم حبي، لكنك تعلننا صديقين لإرضاء ما يتملكنا من خوف الحال.

يفضح وجودهم، جرت لمنع اللصوص من الهرب، عندما خرج أصحابها بعدها وجدوها ملقاة على قارعة الطريق قتيلة، ليعلق الأب قائلًا: «على نفسها جنت براقش».

يا رجل يهوى قربي ودومًا تختار مجالي لراحة وهدوء البال، صباحك ومساؤك فرحة وراحة بال، يا صاحب أشهى البسمات، يا عيون خلابة ووجه آخذ للألباب، طاب يومك يا باهي العبارات.

ما بين جنوني وشرودك أبواب وساديب حكايات، تتجول فيها سائحًا يستكشف كل الروايات، يبحث بتمعن عن جدوى ما فات، وأهمية ما هو آت، ساديب تخبئ قصصًا لعشق مخفي لجروح وآهات، حبًّا آخر وتعلقًا بهوى مضى منذ زمن وبك قد مات.

آه لو تعلم كم أنتظر لقاءك وأتوق إلى رؤيتك، وكم أحلم بوجودي معك بالبقعة نفسها في محيط الدنيا الواسعة، كم أتمنى لمس خيالك، تنفُّس عطر أنفاسك والتهام عبير عينيك، لنتجول معًا دون هدف، في تشردنا نشاهد نجومًا سابحة كقناديل مجرات كون، جاذبية مثيرة لأحاسيس الغرام تعيش به حوريات الأحلام بكل بهاء.

ما بين طيات وأمواج ضحكاتك كلمات وكلمات، تجعلني المتفردة الجديرة بحبك وعشقك أنت، فأنا أنت وأنت أنا ولا مجال آخر لك غير حبي وعشقي.

فهل ستختار الهروب بالتخفي نهاية دربنا؟ آه منك! كم أحب الشرقي المتعاجب بشرقيته، المتفاخر بقوميته العربية، تلك السلوكيات تجعله أجمل وأشهى، يا صاحب الرايات وقاتل الهفوات، يا ساحر الفتيات، حبك سالب الآهات ويلقي بي وسط نجوم سحاب عاجي الأركان.

يا وجه عذابي وحبي الطائش، يا عقل غافل متغافل، يا هدوئي في عالم متآمر، أحبك يا رجل غير الجميع.

* * *

النهاية

عندما فرغوا من تداول قضيته سريعًا، بدأوا يقتربون منه، ضحك بصوت عالٍ، سخر منهم ومن هزلهم المبتذل، صرخ بهم:

مجانين.. أنتم مجانين..

انصرفوا بعيدًا عني واتركوني لشأني.

ثم صرخ قائلًا:

من يطلب الغفران ممَّن؟

من يسامح من؟

من يأخذ القصاص؟ ولمن؟

من هناك؟ ومن هنا؟

من بريء؟ ومن مذنب؟

من أنا؟ ومن أنتم؟

من الملاك؟ ومن الشرير؟

من منا إنسان؟

هذه هي الحياة . .

عندما تختلط الأوراق . .

عندما تضيع الروح . .

وسط غياهب وظلمات دوائر الدنيا .

أنتم قتلة سفاحون . . أما أنا فبريء .

انقضُّوا عليه على حين غرة . .

سحبوه إلى منتصف المحبس، ووضعوا على رقبته أنشوطة لشنقه، كتموا فمه كي لا يصرخ ثم شنقوه بواسطة حبل جدلوه من

ملابسهم عشية احتفاله بعيد مولده الثلاثين، ثم اعترفوا في التحقيقات بأنهم اقتصوا منه.

حاكموه بقانون الوطنية لا بقوانين وضعتها لبنان؛ فهذه القوانين تخص أمثالهم من القتلة واللصوص لا الخونة بائعي بلادهم بزهيد الأموال.

كيف شعر؟ ما المشاعر التي غمرت قلبه وقتها؟ هل ندم؟ هل استمر في لا مبالاته؟

لا أحد يعلم.. الله وحده العالم بخفايا نفسه وروحه.. وهنا تنتهي حكاية خائن، لكن لا تنتهي دائرة خيانة موجودة منذ قديم الأزل، مستمرة حتى نهاية هذا الكون الفاني.

* * *

«عائشة»: هيا أمي.. ما رأيك فيما سجلت؟ لم يستغرق الأمر سوى خمسة أيام لأحكي لك قصته.. أعتقد أني قد لممت كل أشلاء الحكاية بمذكراتي، أليسَ كذلك حبيبتي «حبيبة»؟ (قُلتها باسمةً محاولةً إفاقة والدتي الغارقة في النوم).

«حبيبة»: نعم.. آه (قالتها ناعسة)، نعم بارعة أنت في السرد، ربما إذا خرجت يومًا من شرنقتك هذه وتركت حجرتك تحولينها لمسلسل، سيتعلم منه ويتعظ من تسول له نفسه بيع بلاده ودماء رفاقه وأحبته.

«عائشة»: ها قد عُدنا لتلك الأسطوانة المشروخة.. تصبحين على خير أمي.

«حبيبة»: تصبحين على واقع أجمل وأخبار أروع، طفلتي الحبيبة.

في الصباح، كُنت متأكدة أن أمي دعت من صميم قلبها لأجلي، فقد كان صباحًا مُثيرًا.. مُبدلًا لحياتي البائسة للأبد، فلقد استيقظت على صوتها يهلل:

أهلًا «مازن»، مرحبًا بك ابني الغالي، الحمد لله على سلامتك، تعالَ سأجهز لك فطورًا خاصًّا ثم أوقظ «عائشة»، ستسعد بعودتك كثيرًا.

«مازن»: حسنًا أمي، على الرغم من أني لا أريد فطوراً لكني لن أرفض عرضًا مغريًا كهذا.

«عائشة»: آه «مازن».. حبيبي، أيقظتني على مسافات وليست مسافة واحدة، تسكن قلبي وعقلي مسافات كبيرة شاسعة، تفصل بينهما وكأنهما جزيرتان: واحدة بوسط العالم والآخرة بآخره، لا تربط بينهما غير كلمات تجول في الخاطر تحكي عنكَ..

كلمات تراضي هذا وذاك، ينشر عبقها أريج وجودك بيننا، كم أتمنى لو كل صباح تنير الدنيا بعبير طلتك، أسعدك الله وأدام لك الخير والرقي والجمال.

لم أستطِع الانتظار أكثر حتى تأتي أمي لتوقظني كما أرادت أو لتساعدني، لم أهتم أن يراني قعيدة كرسيي، استندت على سريري حتى وصلت إلى كرسي وجلست عليه لأخرج وأراه، أخيراً سأراه، آه.. حبي الوحيد، ها أنت قد عُدت أخيراً.

لمحني خارجة من الغرفة:

أهلًا . . أهلًا بـ«عائشة» . . افتقدتك كثيرًا أيتها الشقية .

لم ينتظر وصولي إليه لألقي السلام، بل اقترب باسمًا . .

طبع قبلة على جبيني، أخفيتُ وجهي بكفي مُتفاجئةً من فعلته وخجلًا منه ومن أمي التي كانت تـوًّا خارجة من المطبخ حاملة صينية الفطور، ما كان منه إلا أن توجّه إلى أمي الذاهلة من فعلته، المشحونة بغضب جام لاستهزائه بوجودها ليفعل هذا . . وضعت الطعام على منضدة صغيرة في غرفة المعيشة . . عاجلها قائلًا :

خالتي . . زوِّجيني ابنتك، لن أنتظر المزيد . . لقد تعبت حتى توصلت إليكما، أريدها زوجتي ما بقي من عمري . .

لا أنكر دهشتي الكبيرة على الرغم من فرحتي العامرة وأمي بطلبه، هل حقًّا ما سمعت؟! حركت نفسي مسرعة إلى الغرفة، وسمعت أمي تجيبه بأن عليه مفاتحة عمي «نواف» في الأمر؛ فهو رجلنا، وافق وأخذ منها عنوان بيته كي يذهب إليه مساءً . .

هكذا بدأت رحلة جديدة في حياتي بمشاركة «مازن» وأمي . . هي هكذا الحياة لا تستقر أبدًا على حال .

كان حب «مازن» سندي في وقت سئمت فيه من تهدم هياكلي، تهشم صوامعي، إخراس صوت ابتهالاتي، انحناءات ظهري لسقوط سقفي . .

وقت قررت فيه أن أنحت من شخصية «مازن» تمثال شهم حصيف، رزين عاقل ومبدع، مجنون وحنون، يساعدني على تحمل الحياة . .

لكني لم أظهره لأي أحد كان في هذا الكون، ليظل لي وحدي أبد الوجود، زميل عمر وأخ كفاح وتوأم روح، حتى مماتي . .

ها هو ظهر ليكون واقعًا وحقيقة في حياتي، لا مجرد تمثال زائف داخلي، مع «مازن» صرت روحًا متلونة . . نعم، روح متلونة بسهام الشمس الذهبية، وبأشعة القمر الفضية . .

مشبعة بضربات البحر الهادرة بنعومة، بصفاء سمائي الزاهية، ولمسات نجومي الحانية، بعتمة الغيوم في عينيّ، بنغزات الشتاء الموجعة بلطف، بحرائق الصيف الباردة بوجوده..

لقد أصبحت متلونة، بالدنيا وما فيها، بأحداثي ومآسيها، بأفراحي وغنائها.. نعم، روحي متلونة بعشقه.

الآن لديَّ و«مازن» فتاتان وولد شقي مشاغب، نُقيم مع أمي في لبنان بعد إجراء عمليتي في القاهرة، «مازن» ما زال مناضلًا من أجل تحقيق أهداف قضية تحرير فلسطين، أغلب وقته يُقضيه متنقلًا بين القاهرة ولبنان وفلسطين..

أما أنا فقد أصبحت الإذاعية الناجحة عائشة الغزالي، كاتبة، مطلوبة قصصي متنوعة الأحداث؛ فأنا عاشقة لسرد الواقع مجملًا ببعض الخيال، مقتنعة بعدم إثارة اكتئاب قرائي، هدفي كتابة ما يبُث الأمل، لا ما يخنق الإحساس.

* * *

«شهرنان» . . أخبري الأحبة بأنه ما دام ودهم في وادينا يرتع فبقدرة الله حبهم بقلوبنا دائم ومستديم، فما بيني وبينهم حبال أفكار، نار بداخل قلب من رماد، كلما قطعناها لنهرب من سجنه، تعيد الدنيا ضم قلوبنا وتغني: لا مهرب من جنتي يا أحباب.

كيف الفرار وعيناه لآلئ درية وبحار ماسية؟ عالمي هو أهرول به دون رويّة، معه وجدت روحًا كنفسي، هويتها . . عشقتها . . واشتهيتها؛ لذا أنتظر حبيبي كل صباح حتى يفتح نوافذ غرفته . .

كم أحبه عندما يثير زوبعة ليراني إشراقًا لصباحه، وتبهجني تحيته الصباحية المخفية بين نغمات بصوت جهوري يدندن بها، ويصبح شكلي مثيراً للريبة عندما يُعلمني بقرب نزوله بطلبه فنجان قهوة تركية من والدته على عجل . .

لكم أعشق مناورات إضاءة حجرة مكتبه لأعلم أنه قد حان موعد لقاء يجمعنا، موعد ليلي خاص نتبادل فيه أحاديثَ عمَّا حواه اليوم من أحداث ومشاكل وحلول جاءت فقط بتجمع أعيننا، آه لو يعلم أهلونا بوجود رسائل سرية طائرة بين عمائرنا.

أعلم أن البعد دربنا، وكل منا سيذهب في طريقه. . لكني ما زلت أريد قربه، فماذا فعلت؟ وعلى نفسي ما الذي جنته يداي؟

آه يا نفسي، لِمَ كان القرب؟ ولِمَ كان البعد مصيراً؟ آه يا نفسي، وآه يا لوعتي على ما فعلت وجنيت، وليته يدري مدى ألمي على الرغم من حبه عندما يُهَدِّئ العقل من سيطرته ويترك القلب وحيداً يتوجع. .

كيف يستقيم الظل والعود أعوج؟! فبوجود حبيبي يستقيم عودي ويشتد لأقاوم كل أحداث ومنغصات الحياة.

لكن إلى متى سأظل أُخفي عيني عن رؤية كل ما يبعدني عن حبيب أتمنى وصله وهواه؟! إلى متى أكذب على نفسي ممنِّيةً إياها بصلاح الحال يومًا ونهل الشهد من أنهار هواه؟!

إلى متى أتجنب النظر والتعمق فيما تفعله يداه لقتل ما يجمعنا وترك ما يفرقنا فقط دون مبالاة؟! إلى متى؟!

إلى متى أظل ضعيفة كسيرة الخاطر في حمى حب واه؟! إلى متى أقبل مساومات لقرب مُثَمَّن، قرب أشبه بقرب الأشباح، دومًا مُرعب، مفزع، قد يقتل في لحظة؟!

إلى متى أوافق على اقتراب كاقتراب الجان نستشعر وجوده لكن أبدًا لا نراه؟!

إلى متى أشياء كثيرة تُفعل للإهانة أقرب وللحب أبعد، أشياء بغيضة منه تصدر وأقبلها ضعفًا ومهانة؟ إلى متى يا قلب ستظل تقبل وتقبل؟ أجبني بالله عليك.. متى تثور وتفيق لتعيش وتنال ما تستحق؟! إلى متى؟!

لم تعد المشكلة في من أحب وأهوى، هو فعل كل ما يمكنه لقتل ما بداخلي من حب وعشق وهيام، أصبحَت الآن الأزمة في قلبي، لِمَ الاستكانة بذل وخنوع راضية بدور الجارية؟!

لمَ تقبل الملكة أن تنزل عن عرش الهوى وتتنازل عن تاج عفة الغرام وتركع بخضوع لحب ضعيف هزيل الأركان؟! آه من وهن صار يتملكني معك..

لِمَ تضيع مقاومتي أمام نبرات صوتك وتهيم سرابًا بين نظرات عينيكَ؟! آه مني ومن حب يحبسني بضعف داخل خيوط شبكته العنكبوتية، آه من مشاعر تتجنّى عليّ وتأسرني بقفص حب خانق لهواي..

آه ثم آه منك يا من تدعي حبي وعشقي وغرامي وترميني - على الرغم من هذا - بكل ما يسجنني بتوابيت عشقك المنسي، تدفنني حية وسط أشلاء حب، تسكنني بيت غرام صدر قرار إزالته منذ عهود.

تُركبني قطار الموت بمدينة ملاه لا تراعي شروط أمان، تسندني على سور أمنيات وطموحات سقطت دعائمها منذ قرون، آه ثم آه منك ومن حبك ومن نفسي يا غرام واهٍ وضعيف الخلجات.

«شهرنان».. مذنبة بالجرم الشهير، سأل حبيبي: أتحبينني أنا، أم أبياتي؟ سأجيبه هنا بكتاباتي: نعم.. أحبكما.. أحبك وأحبها، أراها تحيطك وأراك بها، تجذبني إليك وتجذبني إليها، أسبح بك وأطير بحروفها، أغوص بأعماقك هائمة برؤيتها، أُفتن مرة بك والأخرى بسحرها، أشعرها تحميك وأنت تحويها،

أنفاسك تعطرني وأنا غارقة بسطورها، ألمسك متعمقًا بداخلي لسماعها، أراك بخلجاتي هائمًا لقراءتها، وكيف لا أحبها وهي سفيرتك وأنت كاتبها؟! أنت هي.. وهي أنت، لكن لا يمكن الاستغناء عنك بحبها.

سألني عن حبي للأشياء الغريبة، إعجابي بالكتابات والنقوش العجيبة، عشقي للروايات والأساطير المريبة، سرحاني بصوري ورسومي الحبيبة، هيامي بقصص حوريات الجنة البديعة.. افتناني بالدنيا على الرغم من أحداثها المريعة، قناعتي بأنني أنثى مدغشقر فظيعة، معك سيدي أهوى السحر والطبيعة.

لِمَ تستغرب عشقي للكلمات؟ تطالبني دومًا بالإثبات لعشقك والثبات، أنت من جعلني أحب الساحرات.. يا سر هدوئي وحياتي وخلودي بالحياة، حبك يمنحني الصمود؛ فهو كالمياه.. عشقك الخفي يشكلني بما أهواه.

مع عشقك أرتل أشعارًا عن قصص الأغيار، يا حب سكن فؤادي، في بعدك تنهار روحي، أتمناك قريبًا يسمعني أعذب ألحان المزمار.. ففي قربك تدفئ قلبي وكأن ما بيننا عذب الأنهار.

حبيبًا يتميز بالطبع الطيب، وجوده ينسف أوهامي وعليها يبني خيالات الأسحار، هواك خليط أكونه بنفسي كجبال شاهقة ليست أهوارًا، عشق وغرام وعليهما بعض الوله يزينه دلال الأخيار.

مذنبة أنا بالجرم الشهير.. عاشقة أنا لرجل خطير، فهل يا تُرى ترضى بحب مثلي، أم تستهويك فتيات ترتدي المخمل؟! يا رجل من خلف الأساطير، بروحي وقلبي ها أنت تطير، هل يا تُرى يرضيك عقلي، أم تستهويك ذات الجمالِ؟! معك الجنون مسيطر وكبير.. والفنون تشع مني يا أمير.

هل يا تُرى ترأفُ أنت بحالي، أم تستهويك صاحبة المال؟! ملك بأشعاري حلمي معك أكون.. بعينيك وحنانك لمست عذوبة التغيير، فهل يا تُرى ستكون إلهامي وهلالي، أم تستهويك الفتيات ذوات الأفضالِ؟!

معك.. حبي بأحضانك طفل بريء غرير.. وأنت في العشق سلطان، فهل يا تُرى سأكون لك بالحلال.. أم يستهويك العيش بالظلالِ؟! دونك ما زلت ملاكًا فقيرًا.. بك ومعك حبي حياتي

ضياء قِنديل منير، فهل يا تُرى تراني وأستهويك يا غالي؟! حلمي وواقعيَ الأثير، الطائر بأحلامي كالعصافير، بالنجوم زرعتني.. بالقمر شبهتني.. وسط الأمطار فتَّنِي.. بالسحاب سحرتني.

آه توأمي.. ذوبتني.. بأرضك حطمتني، وبسمائك بعثرتني، بأمواجك كسرتني، وبرياحك قهرتني، وها قد جئتني.. متمهلًا متأنيًا بالهوينى، تتغزل مغنيًا لعينيَّ، تقربني وتحتويني، وبذاتي تفرحني، عطرًا صافيًا شممتني، وخيالًا مشرقًا أريتني، آه منك.

يا واقعي وضي سنواتي، واقعك أنا وحبك فضمني، يا هاجري ومعذبي أحيني، كالجنين حنيني أسقِني، حبي الأثير.. كن في دعائي شريكًا وصحبتي، وبصلاتي كنِ إمامي وقدوتي.

انتهت

تدقيق وتحرير لغوي:

محمد أحمد عبد الغفار

صدر للكاتبة

ورقيًّا:

مجموعة قصصية "روح وجسد" – دار أكد للنشر والتوزيع ٢٠١٤ .

رواية "شهرنان" ـ دار غراب للنشر والتوزيع ٢٠١٥ .

رواية "على الجانب الآخر" ـ دار الوليد ٢٠١٦ .

رسائل "ماذا لو؟!" ـ دار جولدن بوك ٢٠١٧ .

مجموعه قصصية "موت على قيد الحياة" ـ دار جولدن بوك ٢٠١٨ .

رسائل "يا أنت . . أنا" – الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠١٨ .

رواية "ما وراء الخلود ـ الكونتيسة" ـ دار بيوند للنشر الالكتروني ٢٠١٩ .

نشر الكتروني:

نصوص "إليك أنت" .

نثريات "ليل والحياة" .

خواطر "اسمع بيانولا بهية" .

خواطر "احتلال جنية الأحلام" .

قصائد نثرية "ثنائيات ليل" .